حول أحفال المولد الشريف

الاحتفال بميلاد محمد ﷺ ، ليس كالاحتفال بميلاد أى إنسان آخر .

ذلك أن عشرات العظماء الذين نحيى ذكراهم ونمجد سيرتهم هم أناس لمعت فى التاريخ أسماؤهم ، وتركوا بيننا ما يشهد بعبقريتهم ويدل على مواهبهم ، فنحن نشيد بما يستحق الإشادة من أخلاقهم وأعمالهم .

أما محمد - صلى الله عليه وسلم - صاحب الرسالة العامة ، والإنسان الذى اختاره الله رحمة للعالمين فله شأن آخر ينفرد به .

إنه القائد الروحى والفكرى لمواكب الأحياء ما بقى الليل والنهار .

وسيرته قدوة ترمقها بصائر المؤمنين فى كل وقت وتستمد منها طهارة القلب من الإثم وطهارة العقل من الخرافة .

واسم محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يُذكر مرة فى كل سنة عندما يُحتفل بميلاده ، كلا ، فهو يُذكر فى كل أذان وفى كل صلاة .

يُذكر فى كل أذان عندما يهيب دعاة الله بالناس أن يُكبِّروا الله ، ويؤدوا حقه وينتصروا على مشاغل العيش وشهوات الحياة .

ويُذكر فى كل صلاة عندما يقف البَشر بين يدى خالقهم خاشعين مخلصين يشهدون له بالوحدانية ، ولنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة .

إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قدوة دائمة لأتباعه ، وأسوة حسنة لمن يحبون الله ويرجون رحمته .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (١) .

---

(١) الأحزاب : ٢١

من أجل ذلك نحن نرى أن الاحتفال بمولد محمد ﷺ ليس إلا فرصة لتوكيد الولاء له والاحترام لتراثه والاستمساك بتعاليمه والرغبة العميقة فى نفع العالَم بها .

* * *

ومحمد - صلى اللّه عليه وسلم - عربى المولد واللسان ، ولكنه عالمى الرسالة والكفاح والغاية .

وكما أن الشمس ليست مِلكاً لجنس معيّن ، لأن الحياة جمعاء تنتفع بضوئها ودفئها .

فكذلك محمد ﷺ وتراثه الكريم ، إنه مِلك الإنسانية جمعاء .

ونحن ندعو المنكرين لرسالته ، كما ندعو المؤمنين بها أن يتأملوا فى شخصية محمد ﷺ وأن يدرسوا أطوار حياته ، وأن يتدبروا قرآنه وسُنّته ، وأن يتابعوا الطريقة التى بنى بها الأمة الإسلامية ، وأن يروا كيف طوّر الإسلام جماعة عاشت دهراً فى أعماق الصحراء ، فإذا هى خلال نصف قرن أرقى أمم الدنيا .

وإذا حضارتها تُقدَّم للعالَم كله أشرف ما يعتز به من مبادىء ومُثُل وفلسفات .

ولعلنا فى هذا القرن الرابع عشر للهجرة المحمدية ، والعشرين للميلاد المسيحى ، أقدر من أجيال مضت على الحكم لمحمد ﷺ والتنويه بعظمته ، والشهادة بنبوته ، فقد ارتقى العلم كثيراً ، واكتشف حقائق علمية وإنسانية رائعة .

وما من أحد يتلو القرآن اليوم ، إلا خُيِّلَ إليه أنّ الوحى نزل به الآن ، وأنّ صاحبه يبلغه للناس الساعة ، فآياته متجاوبة مع حقائق الكون ومقررات العلم ، وأدلته مستقيمة مع منطق العقل ومطالبه ، متلاقية مع مطالب الفطرة .

إنّ مر الزمن لم يُشعر أحداً أبداً أن هذا القرآن تخلّف عن عصره ، أو أنّ محمداً - صلى اللّه عليه وسلم - قصة فات وقتها ، كلا ، كلا !

إن عالَمنا اليوم شديد الاحترام للإنسانية المجردة - أو هكذا ينادى عقلاؤه - شديد المقت للتعصب والظلم .

ومحمد ﷺ ، صاحب التعاليم الحاسمة الناصعة فى هذا المجال .

فهو القائل : « إنَّ اللّه أوحى إليَّ : أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » .

وخطب فقال [1] : « يا أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد . ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [2] .. ألا هل بلغت ؟

قالوا : يا رسول اللّه بلى ! قال : « فليبلغ الشاهد الغائب » !

واختلاف الأديان ظاهرة قديمة بين الناس ، ولا يسوغ أن يكون هذا الاختلاف مثار تظالم واعتداء .

وقد أمر اللّه محمداً ﷺ أن يقول لمخالفيه كلهم : ﴿ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ من كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [3] .

وعندما حاول المتعصبون اعتراض طريقه وتعويق دعوته توجه إليهم الوحى السماوى بهذا العتاب الرقيق الحصيف : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ ؟ [4] .

* * *

كان ظهور محمد - صلى اللّه عليه وسلم - بالرسالة مفاجأة له وللناس على سواء ، فهو لم يتطلع لهذا المنصب ولا استشرف له .

---

(١) أحمد : ٥/٤١١ طبع الحلبى ، والترمذى فى التفسير .

(٢) الحجرات : ١٣ (٣) الشورى : ١٥ (٤) البقرة : ١٣٩

والعرب الذين نشأ بينهم كانوا وثنيين يعكفون على طلب القوت وابتغاء اللذة ولا يعنيهم أمر السماء قليلاً أو كثيراً .

وفى هذا المعنى يقول الله لنبيه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُواْ أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

أى أن الله هو الذى تفضل عليك واختارك لتهدى الناس فقدِّر هذه النعمة ، وقاوم الضلال السائد حتى تكشف غمته وتذهب ظلامه .

وكرر هذا المعنى فى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢) .

أى أنك كنت خالى البال من أمر الوحى ، ودراسات الأديان حتى شاء الله أن ينير قلبك لتنير سائر القلوب ، ويشرح بالحق صدرك لتشرح به صدور المؤمنين من كل جنس .

وهذه الكلمات القرآنية تشير إلى أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد تجرد من كل معانى الغرور والكبرياء .

وأنه لا يُدل على غيره بعبقرية خاصة أو يطلب من أتباعه تقديسه ، لا !

إنه عبد الله فقط ، رسالته تقوم على إفراد الله بالعظمة والجلال ، والتقرب إليه ، جلّ شأنه ، بصدق الإيمان وصالح العمل .

وأرفع الناس مكانة أزكاهم خُلُقاً ، وأعرفهم بحقوق الله ، وأسرعهم إلى مرضاته ونفع عباده .

وتوكيداً لهذه الحقيقة يقول عليه الصلاة والسلام : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » (٣) .

---

(١) القصص : ٨٦ (٢) الشورى : ٥٢

(٣) رواه ابن عدى فى الجامع : ١٧٧/١ وهو ضعيف .

ويقول : « إن اللّه يكره أن يتميز الرجل على إخوانه » ، أى يترفع ويؤثر عليهم نفسه .

ويقول : « ابغونى فى ضعفائكم ، هل تُرزقون وتُنصرون إلا بضعفائكم » ؟ (١) .

أى مَن أراد لقائى فليبحث عنى لا بين الأقوياء والأغنياء والملوك والحكام ، ولكن مع سواد الناس وفى صميم الطبقات الكادحة ، فإن هذه الطبقات قوام الحياة ومصدر العمل والإنتاج والنصر ..

وسأله رجل : يا رسول اللّه ، أى الناس أحب إلى اللّه ؟ فقال : « أحب الناس إلى اللّه أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى اللّه - عزّ وجلّ - سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة ، أو تقضى عنه دَيْناً ، أو تطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشى مع أخ فى حاجة أحب إلىّ من أن أعتكف فى هذا المسجد شهراً ، ومَن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ اللّه قلبه يوم القيامة رضا ، ومَن مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها ، ثبّتَ اللّه قدميه يوم تَزل الأقدام » .

* * *

وكان ابتداء الوحى لرسول اللّه ﷺ عندما بلغ الأربعين من عمره ، وظل يتنزل عليه ثلاثاً وعشرين سنة .

وعندما ضاق المشركون بدعوته واستغربوا القول بوحدانية اللّه ، وأن الآخرة حق ، طلبوا منه أن يقول كلاماً آخر يكون أقرب إلى عقولهم وواقعهم .

فرد عليهم بأنه لا يفتعل من عنده شيئاً حتى يستطيع التغيير والتبديل ..

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) أحمد ، وابن حبان ، والحاكم . الجامع : ٦/١ (٢) يونس : ١٥ - ١٦

أى إنى أنطق بتوجيه اللّه لا بقوتى ، وأؤدى ما يكلفنى به لا ما أؤلفه من عندى ...

وأنتم تعلمون أنى مكثتُ أربعين سنة لا أقول لكم شيئاً .

وخلال هذه السنوات الأربعين ما عُرِفتُ إلا بالصدق والأمانة . فكيف بعد هذا العمر أدعى الكذب على الناس وأفترى على اللّه ؟

وكل منصف يتابع مراحل الوحى خلال هذه السنوات الثلاث والعشرين ، لا يسعه إلا أن يملأ فؤاده حباً لمحمد ﷺ وإعزازاً وتقديراً للعبء الضخم الذى حمله لوجه اللّه ومصلحة الناس كافة .

عاش محمد ﷺ فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، ثم هاجر منها تحت ضغط الاضطهاد والأذى ليقضى عشر سنين فى المدينة .

ويمتاز العصر المكى بأنه كان مرحلة بناء النفوس على الإيمان باللّه واليوم الآخر ، وتدريب المؤمنين على تكريس الحياة لخدمة الحق وإعلاء كلمته .

وفى هذه المرحلة الشاقة تكوّن جيل من ذوى اليقين الخالص والخُلُق الصلب والتضحية البالغة .

فلما تحوّل هذا الجيل المكافح إلى المدينة ، أخذت ملامح المجتمع المؤمن تتكون وتبرز ، فإلى جانب بناء النفس على العقائد والأخلاق والعبادات أخذ بناء المجتمع يتماسك بالتقاليد الفاضلة والقوانين المحكمة والمعاملات التى يزينها الشرف ، والنبل ، ويضبطها العدل والفضل .

ولا مكان هنا لإحصاء شرائع الإسلام وآدابه فى كل مجال .

ويكفى فى ذلك قول رسول اللّه ﷺ : « ما تركتُ من خير يقربكم إلى اللّه إلا أمرتكم به ، أو شر يبعدكم عنه إلا نهيتكم عنه » .

وجعل هذا كله مؤسساً على الضمير الحى الواعى الحسّاس ، فقال : « البر حُسْن الخُلُق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهتَ أن يطلع عليه الناس » .

وقال : « قد أفلح مَن أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليماً ، ولسانه صادقاً ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة » .

وقال : « كرم المؤمن دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خُلُقه » .

والدعامة الأولى فى عظمة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - رحمته الواسعة وقلبه الكبير ، فقد كان يبذل جهوداً مضنية لهداية الحائرين ، والأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة ...

فإذا أبوا إلا البقاء على جاهليتهم والاستمرار فى ضلالهم مَلَكه الحزن الشديد ، وشعر بما يشعر به الوالد عند ما يرى ولده قد أضاع مستقبله باللعب والغفلة .

وكم من أب شعر بالشقاء لأن ابنه لم يستمع إلى نصحه ، فرسب فى الامتحان أو فشل فى ميدان العمل .

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - البار بالناس الحريص على حاضرهم ومستقبلهم كان الأسف يمرضه عندما يرى بعضهم آثر الإلحاد على الإيمان ، واختار الغى على الرشاد .

وقد نصحه الله بالتخفف من هذا الشعور الغامر الممتد ، فليس كل أحد يستحقه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (١) .

يعنى أنه لا ينبغى أن يقتلك الحزن لمصير المعاندين ، فلو شاء الله كسر شوكتهم ، فعرفوا الحق فى أحرج ما يمر بهم من شدائد ...

أما الذين وهب الله لهم سعة الفكر وصفاء الضمير فآمنوا عن إخلاص ، وقدّروا نفاسة المبادىء التى احتواها الإسلام ، فإن هؤلاء يعدهم الرسول الكريم جزءاً من نفسه .

وفى الحديث الشريف : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا

---

(١) الشعراء : ٣ - ٤

والآخرة . فأيما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته مَن كانوا ، ومَن ترك دَيْناً أو ضَيَاعاً - عيالاً فقراء - فليأتنى فأنا مولاه » ؟ [١] .

وظاهر هذا الحديث أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجعل نفسه ولى أمر كل محروم ، وأن قرابة الإيمان عنده ترجح كل علاقة أخرى .

وبهذه الصلة الروحية السماوية كان قوام المجتمع الإسلامى : الحب والتعاطف ، فهم روح واحدة فى أجسام متعددة ، أو هم إحساس مشترك فى جسد واحد ، إذا تألم البعض شعر به الكل فهبوا لدفع الأذى عنه وإدخال السرور عليه . والمنبع الأول لهذا الإحساس النبيل هو قلب صاحب الرسالة ، لأنه قلب أكبر من أن يحقد لباعث شخصى ، إنه يحب لله ويكره لله .

أمام نداء العدالة تذوب كل قرابة ، ويرتفع صوت القانون ، ويقول محمد ﷺ لابنته : « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى لا أغنى عنكِ من الله شيئاً » [٢] .

ويقول : « واللهِ لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » !! [٣] .

وأمام نداء العفو والسماحة يقول لكفار قريش ، وقد وقعوا جميعاً أسرى بين يديه بعد فتح مكة : « ما تظنون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » [٤] .

فلا غرابة إذا انطوت القلوب على حب محمد ﷺ ، حباً لم يُعرف مثله لبَشر آخر الدهر .

والحق أن محبة رسول الله ﷺ ركن فى الإيمان وآية على صدقه .

وكلما ازداد هذا الحب عمقاً ، وازداد شعاعه تألقاً ، اقترب المسلم من مرضاة الله واستكثر من طاعته .

---

(١) رواه أحمد ، والبخارى ، وأبو داود ، وابن جرير ، راجع ابن كثير : ٤٦٨/٣

(٢) أحمد ، والبخارى ، والنسائى ، والدارمى .

(٣) الشيخان ، والترمذى ، وابن ماجه والدارمى كلهم فى : الحدود ، والنسائى فى باب : السارق .

(٤) ابن كثير فى السيرة : ٣/ . ٥٧ نقلاً عن ابن إسحاق .

إن العالَم من أزله إلى أبده لم يعرف بَشراً مصفى المعدن ، زكى السيرة ، بهى الخلائق ، صلب الجهاد ، صباراً على الشدائد ، فانياً فى ربه ، شديد التعلق به ، دائم الذكر له مثل ما عرف هذه الشمائل فى النبى العربى محمد ﷺ ...

ولم يعرف العالَم إنساناً شق طريق الكمال شقاً ، ومهّده للناس تمهيداً ، ودعاهم إليه أحرَّ دعوة ، وشرح معالمه لهم أدق شرح ، وتحمَّل فى ذات اللّه ما لم يتحمل أحد ، مثل ما عرف هذه الشمائل فى النبى العربى محمد ﷺ ..

إنه لا يعرف طرفاً من عظمة هذا الرسول الضخم إلا رجل درس فلاسفة الأخلاق والاجتماع ، وساسة الشعوب والجيوش ، ومؤسسى الحضارات والدول ..

فإذا فرغ من هذا الدرس المستوعب لعظماء الأرض ، وانتهى من استعراضه للمبرزين من قادة البَشر وقف بما لديه من خبرة أمام أمجاد الإنسان الكامل « محمد » - صلى اللّه عليه وسلم - ليرى أن عباقرة الأرض تلاشوا فى سناه ، وأن آثارهم تضاءلت أمام هداه ، وأن امتيازهم على أقرانهم تحوّل صفراً أمام شمس النبوة الطالعة وهالتها الرائعة .

والثناء على محمد ﷺ ينبجس من ينبوع الثناء على ربه ، فهو تقرير حقيقة ، وشكر جميل .

فليس مدحه من قبيل افتعال الشعراء لفنون القول فى أشخاص مَن يمدحون ، وليس شكره ألفاظاً تمر بالشفاه مجازاة لنعمة محدودة .. كلا !

فحقيقة الرسول ﷺ ، فوق ما يصف الواصفون ، والأيادى التى أسداها ، تجعل كل مؤمن مَديناً له بنور الإيمان الذى أضاء نفسه وزكاها .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (١) .

* * *

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣

أشرف وظائف المرأة [1]

التلطف مع الإناث ، والرفق بهن ، آية اكتمال الرجولة ونماء فضائلها .

وهو أدب يُبذل للنساء عامة ، سواء كن قريبات أم غريبات ، كبيرات أم صغيرات .

ومع استقامة الفطرة الإنسانية قلّما يتخلف هذا المسلك العالى .

وليس مرده - فيما نرى - الرقة لضعف المرأة وإسداء الجميل لها ، بل مرده إحساس الرجال بأنهم أهل الثقة وموضع الفضل ، وأنهم عند حسن الظن إذا طلب الضعيفُ الحِمَى أو طلب القَلِقُ الأمان !

والغربيون يترجمون هذا الإحساس بتقديم المرأة على الرجل فى الخطاب ، وتقديمها عليه فى الدخول والخروج والجلوس وغير ذلك ...

وهو ضرب من المعاملة ظاهره الإيثار ، وإن كان باطنه مثقلاً بالأوزار ..

ونريد أن نتأمل فى أساليبنا - نحن العرب والمسلمين - مع المرأة ، وأن نقابل بين ما انتهى إليه الإسلام فى هذا الشأن ، وبين ما وصل إليه مفكرو الغرب ، ونقدة الحضارة الحديثة .

ومن الخير أن ننفى أولاً زعماً شاع بين الناس أن العرب فى جاهليتهم كانوا يهينون الأنثى ، ويغمصون مكانتها ، نعم ، هناك سفهاء صنعوا ذلك وعُرِفوا به ، بَيْد أن الأمم لا تُؤاخَذ جملة بما يقترفه رعاعها .

كيف والشعراء العرب ما كانوا يفتتحون قصيدهم إلا بالغزل ؟ مستعرضين

---

(١) رأينا أن الحفاظ على الإيمان يقتضى شرح الحكم الدينى الحق فى علاقة الرجال بالنساء ، وكيف ينتظم المجتمع من رعاية حدود الله فى ذلك المجال .

شمائلهم أمام من أحبن ، أو متغنين بآثر نسائهم خَلْقاً وخُلُقاً . واسمع لعمرو ابن معدى كرب يقول :

لمـــا رأيتُ نســاءنـا يفحصن بالمعزاء شـــدا

وبدت لميــس كأنهـــا بدر السماء إذا تبـــدى

وبدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جـدا

نازلت كبشهم ولـــم أر من نزال الكبش بدا

وعمرو الذى يرغب أن يبدو فى أشرف أحواله أمام حبيبته بدأ قصيدته تلك بقوله :

ليـــس الجمال بمئـــزر فاعلم وإنْ رُديتَ بُردا

إن الجمـــال معـــادن ومناقب أورثن مجدا

ويقول عمرو بن كلثوم ، يصف نساء قومه وموقفهن عند احتدام المعارك :

على آثارنا بيض حســـــان نحاذر أن تقسَّم أو تهونـــا

ظعائن من بنى جشم بن بكر خلطن بميسم حسبـــاً ودينـاً

يفتن جيادنا ويقلن : لستـم بعولتنـــا إذا لـم تمنعونـــا

وهى أبيات ناطقة بإشفاق العربى على حرمه ، واستماتته فى صون عِرضه ، وناطقة كذلك بأنفة المرأة العربية ، وحرصها على أن يكون رجلها ملتقى الخلال العظام ، وإلا ... فليس لها ببعل ، وما يستحق ذلك !

وعندما ينزل بالبيت ضيف ، يدور بين الرجل وامرأته حوار ناضج بالنُّبل ، فهو يناديها أكرم نداء ، ويضفى عليها أحب النعوت :

يا ربة البيت غير صاغرة ضمى إليكِ رحال القوم والقربا

أو يقول :

ألم تعلمى - يا عَمْرك اللّه - أننى كريم على حين الكرام قليل ...

فإذا جادلته فى توسعته على الضيف ، ورغبته فى القِرَى ، قال :

ذرينى فإن الشح يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق

وكل كريم يتقى الذم بالقِـرَى وللحق بين الصالحين طريق

لعَمْرِك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

ولا نحب أن نستطرد فى إيراد الشواهد الصادقة ، فذاك باب واسع . وليس يزرى بالأمة العربية ما كان بها من وأد البنات .

ففى عصرنا هذا ، وفى أزهى عواصم الغرب ، يظهر بين الحين والحين سفاحون مولعون بقتل النساء خاصة ، بعد ختلهن بالألفاظ المعسولة ، وبعد قضاء ما يبغونه من وطر .

وهذه المآسى الفردية لا تتحمل سعة الدلالة ، ولا يعدو عارها مرتكبيها ..

* * *

واحترام العرب لنسائهم جاء ثمرة نضج الذكورة ، وعرفان الأنثى لوظيفتها الصحيحة ، فالمرأة إما زوج حانية أو أم مربية ، أو فى طريقها إلى هذا المصير النبيل .

ووظيفة « ربة البيت » من أشرف الوظائف فى الوجود ، وما يحسنها إلا مَن استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار .

أليست هى حضانة الأجيال الجديدة وشق الطريق أمامها حتى تنبت نباتاً حسناً ؟

إن تصور المرأة فى البيت إنساناً قاعداً لا شغل له جهل شنيع بمعنى الأسرة ...

وتصور ربة البيت إنساناً يجيد الطهى والخدمة فقط ضرب من السلوك الحيوانى عرفته الأمم إبّان انهيار حضارتها وسقوط مستواها العام ...

ولقد كانت المرأة فى صدر الإسلام - كما سنرى - ربة بيت من طراز رفيع ،

وما منعها ذلك من أن تكون فى قمة الثقافة والاستقامة الاجتماعية ، والنهوض بأمتها والانتصار لدينها ...

ولولا أن بعض النساء يعرفن بفطرتهن الذكية وظيفة المرأة تجاه أولادها ورجلها لاشترطنا لهذه الوظيفة مؤهلات نفسية وعقلية معيّنة .

ولا بأس أن نسوق هذه القصة من مآثر العرب فى جاهليتهم ليعلم القارىء أننا لم نجنح إلى المبالغة .

قال الحارث بن عوف المرى لخارجة بن سنان ، فى إبّان الحرب بين عبس وذبيان : « أترانى أخطب إلى أحد فيردنى ؟ قال نعم : أوس بن حارثة بن لأم الطائى » .

فقال الحارث لغلامه : « هيئ لى مركباً » . ثم ركب هو وغلامه ، ومعهما خارجة حتى أتوا أوساً ، فوجدوه فى داره ، فلما رأي الحارث رحب به ، وسأله عن مجيئه ، فقال : « جئتك خاطباً » . فقال أوس : « لست هناك » . فانصرف ولم يكلمه !!

ثم دخل أوس على امرأته مغضباً - وكانت من عبس - فقالت : « مَنْ رَجُل وقف عليك فلم تطل الكلام معه » ؟

فقال : « ذاك سيد من سادات العرب ، الحارث بن عوف » .

قالت : « فما لك لم تستنزله » ؟ قال : « أنه استحمق : جاءنى خاطباً » .

قالت : « أفتريد أن تزوج بناتك » ؟ قال : « نعم » .

قالت : « فإذا لم تزوج سيد العرب فمَن » ؟ قال : « قد كان ذلك » .

قالت : « فتدارك ما كان منك ، فالحقه وقل له : إنك لقيتنى مغضباً بأمر لم يتقدم فيه قول ، فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعتَ . فانصرف معى ، ولك عندى كل ما أحببتَ ، فإنه سيفعل » .

فعمل أوس برأى زوجه ، ورد حارثة ومَن معه . فلما وصلوا إلى بيت أوس ، وجلسوا فى مكان الضيافة ، دخل أوس إلى زوجه ، وقال لها : « ادعى لى فلانة » - أكبر بناته سناً - فأتته .

قال : « يا بنية ، هذا الحارث بن عوف - سيد من سادات العرب - قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أردتُ أن أزوجك منه » . فقالت : « لا تفعل ، لأنى فتاة فى وجهى ردة ، وفى خُلُقى بعض العهدة . ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك . ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما فيه » . قال : « قومى ! بارك اللّه فيكِ » .

ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت : « إنى خرقاء ، وليست بيدى صناعة . ولا آمن أن يرى ما يكره فيطلقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما تعلم » .

ثم دعا الثالثة - وهى صغراهن - ، فلما عرض عليها قالت : « أنت وذاك » .

فأخبرها بإباء أختيها .

فقالت : « لكنى واللّه الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خُلُقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلّقنى فلا أخلفَ اللّهُ عليه بخير » .

فزوجها الحارث .

ولما وصل ديار قومه ، قالت : « أتلزم المنزل والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟ اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك » .

فخرج الحارث مع خارجة بن سنان ، فأصلحا بين القوم ، وحمل الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنوات .

والمرء يعجب لعظمة هذا البيت العربى ، زوجة ترشد رجلها إلى الصراط بعد ما كاد يزيغ عنه .

وبنات يعرفن - بدقة - أوصافهن البدنية ، وطبائع بيئتهن ، فيقدمن - دون أثرة - صغراهن لتكون زوجة الخاطب المقبل .

وعروس تأبى أن تسعد بزوجها حتى تضع الحرب أوزارها ، وتقر السلام حولها ..

أين من هذه الخلال الزاكية فتيات عصرنا المبهورات بفتنة الغرب ، المتمردات على جو البيت ، المخدوعات بأضواء الليل ، الجانيات الشوك آخر المطاف من ترك وظيفتهن العتيدة .

* * *

وجاء الإسلام العظيم ، ومست رحمته حياة المرأة ، فرد عنها طغيان القساة من الرجال .

وحرر إنسانيتها روحاً وجسداً حين أتاح لها أن تتزود من العلم ما تشاء .

وحصّن حقوقها المالية حتى لا تذهب بها أثرة الأقرباء أو الغرباء .

وربطها برسالة الأمة الكبيرة ودعوتها العامة ، فهى فى السلم أو الحرب عنصر فعّال ، وظهير قوى .

وفى نطاق تعاليم الإسلام لا يقل وعى المرأة عن الرجل بقضايا الدين والدنيا .

وما كان نساء الصحابة والتابعين جاهلات بكفاح الإسلام فى أرجاء الجزيرة ضد الوثنية ، أو جاهلات بكفاحه بعد ضد الفُرس والروم .

ولكن توزيع الأعباء أعطى كلا الجنسين نصيبه من العناء دون تعسف ، والإسلام يعرف المرأة قبل كل شىء ربة بيت ، وزوجة بطل ، وأم شهيد ...

ويرفض تجنيد النساء للترفيه كما فعلت أوروبا فى حربها الأخيرة ، وكما تفعل فى سلمها ...

والملامح النبيلة للمرأة المسلمة تراها فى الخنساء ، التى جاهدت فى حرب فارس ، وحضرت موقعة القادسية الهائلة .

اشتركت بأبنائها الأربعة ، وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى ، جمعتهم وزوّدتهم بنار من الإيمان ، ونور من اليقين فى تلك الكلمات الخالدة :

« يا بَنىَّ ، إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين ، واللّهِ الذى لا إلَه غيره ، إنكم

بنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجنتُ حسبكم ، ولا غيرتُ نسبكم .

« وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين ، من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية . يقول الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

« فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله ، سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، وإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها ، واضطرمت ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة » .

ولما كان الصباح ، احتدم وطيس الحرب ، فتقدم أبناؤها الأربعة ، واشتدوا على عدوهم غير مبالين بالموت ، حتى قضوا نحبهم جميعاً ..

ولما بلغ خبر استشهادهم إلى الخنساء ، لم تجزع ، بل قالت : الحمد لله الذى شرّفنى بهم .

وقد فرض لها عمر ، رضى الله عنه ، من بيت المال ما كانت تحصل عليه من أبنائها ، أى ثمانمائة دينار .

يا عجباً ، ماذا صنع الإيمان بفؤاد هذه المرأة البكّاءة ؟ كانت تبكى وتستبكى ، وتذكر أخاها « صخراً » وفى قلبها حرقة :

يذكرنى طلوع الشمس « صخراً » وأذكره بكل مغيب شمسِ

فلولا كثـــرة الباكيـــن حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى

وها ... قد غربت الشمس بأبنائها الأربعة فما ثار لها جزع ، لأنها تعلم أن شمسهم توشك على الشروق فى آفاق الفردوس الأعلى ، وأنهم سوف يقدمونها على بوارق أنهار الجنة وهى تختال بينهم ، وتفاخر باستشهادهم ...

---

(١) آل عمران : ٢٠٠

إن رائدات النهضة النسائية فى بلادنا أقصر باعاً وأنزل رتبة من أن يفقهن هذا المثل .

فإحداهن تكره أن تكون أماً لأربعة ، ولو فرضت عليها الأقدار أمومة أربعة ما أحسنت حضانتهم وتربيتهم وتوصيتهم حتى يبلغوا هذه الذروة .

إنها تريد أن تكون « رجلة » تتولى عملاً فى المجتمع من هذه الأعمال التى تليق بالجنس الخشن ، ولو أدركت ما ترجو ما نفعت نفسها ولا أمتها بشىء طائل .

وعندما يقال لها : تستطيعين صناعة المستقبل كما تبغين عندما تحسنين تبعل الرجل ، وتنشئة الذُرِّية الوافدة ، يتورم أنفها ضيقاً وغيظاً ..

وربما قال قائل : هى فى ذلك على حق ، ويجب تذويب الفوارق المفتعلة بين الذكورة والأنوثة ، وترك المرأة تلج كل ميدان وتلى كل عمل .

ويجب التغاضى عن ضعفها الموقوت ، لأنه أثر القيود التى شلّت حيويتها من قديم .

عندما تستوى مع الرجل على الركب وتتكافأ أمامها الفرص ، فلن تكون الأنوثة عائقاً عن منصب ما .

ونحن لن نرجع إلى الفقهاء الأقدمين نستلهمهم الإجابة على هذه الشبهة ، وإنما نقتطف نبذاً من كلام العالم الفيلسوف « ألكسيس كاريل » ، فيها من الحقائق المقررة ما يدحض هذه الأوهام ، قال :

« للغدد الجنسية وظائف أخرى غير الدفع لإتيان عمل من شأنه حفظ الجنس ، فهى تزيد أيضاً من قوة النشاط الفسيولوچى والعقلى والروحى ... فليس هناك خصى أصبح فيلسوفاً عظيماً ، أو عالماً خطير الشأن ، أو حتى مجرماً عاتياً ، لأن للخصيتين والمبايض وظائف على أعظم جانب من الأهمية ... إنها تولد الخلايا الذكرية والأنثوية ، وهى ، فى الوقت نفسه ، تفرز فى الدم مواد معينة

تطبع الخصائص الذكرية أو الأنثوية المميزة على أنسجتنا وأخلاطنا وشعورنا ، وتعطى جميع وظائفنا صفاتها من الشدة . فالخصية تولد الجرأة والقوة والوحشية ، وهى الصفات التى تميز الثور المقاتل عن الثور الذي يجر المحراث فى الحقل ... ويؤثر المبيض فى جسم المرأة بطريقة مماثلة ، ولكن عمله يستمر فقط إبّان جزء من حياتها ، فحينما تبلغ المرأة سن اليأس تضمر الغدة بعض الشىء . وحياة المبايض القصيرة تجعل المرأة المتقدمة فى السن أكثر ضعفاً من الرجل الذى تظل خصيتاه نشيطتين حتى سن متقدمة جداً .

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذ أن طبيعتها أكثر أهمية من ذلك ... إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محدودة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسئوليات متشابهة ... والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ... الأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها ، وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوچية غير قابلة للين ، إنها مثل قوانين العالَم الكوكبى . فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثَمَّ ، فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن من غير أن يحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن العتيدة .

« إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تُفهم حتى الآن إلى درجة كافية . مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة ... ومن ثَمَّ ، فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة . ولذا يجب ألا تلقن الفتيات التدريب العقلى والمادى ، ولا أن تُبت فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتُبثَ فيهم ... يجب أن يبذل المربون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر

والأُنثى ، كذلك لوظائفهما الطبيعية . فهناك اختلافات لا تنقضى بين الجنسين ... ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين » .

وهذا الكلام القائم على دراسة طبية ونفسية للجنسين معاً هو الشرح الدقيق لقول رسول اللّه ﷺ : « ليس منا مَن تشبَّه بالرجال من النساء ، ولا مَن تشبَّه بالنساء من الرجال » .

إن انسلاخ أحد الجنسين عن فطرته ليلحق بجنس ليس منه ، حرب على الطبيعة ، والتواء بالأمور عن مجراها الصحيح ، ولن يفيد العالَم من ذلك إلا الخلل والفساد ...

ومع رفضنا للنزعات المادية الواقعة فى هذا الخطأ فنحن أحياناً نلتمس عذراً لأصحابها !

إن هناك صورة قاتمة لأحوال المرأة فى بعض المجتمعات ، تجعل الفزع منها يغرى بالفرار إلى أى وجهة .

صورة امرأة تلهث وراء رجل يتخطى دابته .

أو صورة امرأة تأكل ما بقى من فضلات الغذاء بعد ما شبع غيرها .

أو صورة فتاة مقهورة الإرادة تتزوج ممن تكره .

أو محزونة فاقدة الميراث ، لأن أهلها بطريقة ما حرموها إرثها .

أو صورة بلهاء صفر العقل لا تعرف من علوم الدين ولا من علوم الدنيا شيئاً .

أو أنه لا وزن لحياتها ولا لجهدها ولا لرأيها ، لأن البيئة التى أنبتتها جعلتها كذلك ، شخصاً كَلاً على مولاه أينما يُوَجّه لا يأت بخير !

هذه الصورة التى التبست بأوضاع المرأة فى بعض المجتمعات ، وحسبها المغفلون ديناً وما هى بدين ، بل هى رذائل ومحرّمات يسخطها رب العالَمين ..

هذه الصورة هى التى أطاشت الألباب القاصرة ، ودفعتها إلى الأخذ من الحضارة الحديثة دون تبصر .

ونحن نغار على مكانة المرأة المسلمة ، ونريد أن تسلم من لوثات عبيد الغرب ، كما تسلم من لوثات الجامدين المقلدين بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير .

* * *

كان يجب أن نهدى الثناء إلى المدنية الحديثة لو أنها - حين اعترفت بإنسانية المرأة - دعمت جانبها الضعيف وحفظت حقوقها المهدرة وردت عنها عدوان مَن ضنوا عليها بالعلم والمال ، والإسهام بحظ واضح فى رعاية المصالح الخاصة والعامة ...

لكن المدنية الحديثة - وشارتها الأولى.عبادة الحياة - أدخلت المرأة فى المجتمع بطريقة مريبة !

فبدلاً من أن تحصن أنوثتها ضد العبث تعمدت إطلاق الجانب الحيوانى فى البَشر ، وجعلت من أنوثة المرأة فتنة تبعثر الإثم فى كل مكان !

فالملابس لا بد أن تكون قصيرة تكشف ما فوق الركبة ، ضيقة تبرز الصدر والأرداف ، مثيرة تغرى بتفصيلها وتقسيمها على النظر الحرام والفكر الحرام ...

والتقاليد التى أقرتها هذه المدنية الحديثة أن المرأة تظهر فى الأحفال الساهرة شبه عارية ، وأنها ينبغى أن تطعم وترقص مع شخص آخر غير زوجها !

وأقطار الغرب فى أوروبا وأمريكا ترى أن المتعة الجسدية فى كل صورها حق طبيعى للفتى والفتاة !

وفرص التلاقى لإرواء الغريزة الجنسية ، سواء بالزنا أو بما دونه ، متاحة لمن شاء .

وإذا كانت البيئة المؤمنة تفرض القيود على الملابس ، وتباعد بين أنفاس الذكور والإناث إلى أن يلتقى الرجل بالمرأة فى بيت الزوجية وحده فإن المدنية

الحديثة تعمل بدأب غريب على إثارة الشهية الجنسية بالليل والنهار ، فى البر والبحر .. وتستفز الغرائز الساكنة لتدفعها دفعاً إلى الاستمتاع الميسور ، محظوراً كان أم غير محظور ...

إنها مدنية تنشد اللذة وتطوِّع لها كل شيء ، والمسحورون بها يحق فيهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ (١) .

ولما كانت الطَّبيعة البَشرية قد تسكن إذا نالت ما تشتهى ، أو قد تهدأ إذا ألفت ما ترغب ، فإن زبانية النشاط الجنسى يكدون قرائحهم لخلق أزياء وأوضاع جديدة تلهب الذئاب الجائعة لتنطلق فى كل فج وهى تصيح : هل من مزيد ؟

ومن الحق أن نقول : إن الأديان السابقة كانت أعجز من أن تقف السيل الطام .

فقد كان الإنسان بذكائه العقلى أكبر منها وأمنع من تصديق نقائضها ، كما أن ميوله كانت أشرس من أن تنقاد لتعاليمها الباهتة ...

أما الإسلام فكان غافياً فى بلاده ، محتبس الضوء بين حُكَّام الجور ، وعلماء السوء ، وعُبَّاد الغفلة !!!!

ومن ثَمَّ انطلقت المدنية الحديثة فى طريقها لا تلوى على شيء ، تطلب اللذة على ظهر الأرض من كل سبيل ، وترى المرأة أولى هذه اللذاذات التى ينبغى أن تشيع فتتملاها كل عين ... وتلمسها كل يد ...

والمدنية الحديثة الآن تفرض نفسها على القارات الخمس ..

ويكافح بعض المسلمين في جو مُرْبِد لينقذوا أقطارهم من هذا الشرود الجنسى الطافح ، ولكنهم - إلى يوم الناس هذا - يحاربون فى معركة انسحاب !

ولكى نعرف المدى الذى تبغى هذه المدنية أن تصل إليه ننقل هنا فقرات

---

(١) الإنسان : ٢٧

لكاتبة فرنسية تدعى « سيمون دى بوفوار » ، وهى كاتبة وجودية ، إلا أنها تصور الوقائع والآمال التى يتبناها ويتمناها صحافيون عرب منبثون فى كل مكان (١) .

ترى هذه المرأة أن من حق الزوجة أن تزنى !!!

وإذا كان زوجها يضيق بوليد من أب آخر ، فإن التقدم العلمى حلّ هذه المشكلة !

يقول « أندريه موروا » : فيما يتعلق بإقحام طفل غريب على كيان الأسرة وفراش الزوجية ، ترد « سيمون دي بوفوار » : بأن من مآثر العلم الحديث أنه هدم هذه الحُجّة العتيقة بما ابتدعه من وسائل منع الحمل ، وبذلك تمكن المعاشرة الجنسية بلا قيد ولا شرط وبدون نتائج يتضرر منها الزوج ويتذرع بها القانون لتشديد النكير على الزوجة التى تثبت عليها الخيانة الزوجية !

وليس من رأى « سيمون دى بوفوار » أن الزواج أفضل حل للعلاقات بين الرجال والنساء . بل تؤيد بدلاً من الزواج الذى يعتبر وظيفة اقتصادية واجتماعية ، قيام الحب باعتباره هبة مجانية متبادلة بمحض الإرادة لا بالجبرية أو القهرية القانونية والضرورة الاقتصادية .

إن « سيمون دى بوفوار » تقول صراحة :

« إن مبدأ الزواج مبدأ فاضح ناب ، لأنه يحول إلى حق وواجب ما هو بحكم الطبيعة تبادل حر ينبغى أن يقوم على الباعث التلقائى » !

وتأسف سيمون ، لأن غالبية النساء ما زلن إلى اليوم متزوجات أو يتأهبن للزواج ويتعذبن إن لم يظفرن بزوج !

ذلك أن المرأة حين تتزوج تلتحق بعالَم زوجها .

---

(١) ولذلك نشروا هذا المقال فى صدر مجلة « الهلال » الشهيرة .

فأهلها يقولون : إنهم قدموها زوجة لفلان . وفلان يقول : إنه اتخذها زوجة .

ومعنى هذا أن صورة الحب فى أذهان الناس إنما هى صورة خدمة تقدمها المرأة للرجل . وله أن ينال لذته ومتعته منها فى مقابل تعويض مادى هو ضمان الاستقرار .

ومعنى ذلك أن المرأة لا تختار بحريتها الرجل الذى يستهويها جنسياً ، وإنما هى تتزوج لتنتمى إلى رجل معين .

ومأساة الزواج إلى يومنا هذا أنه يمنى المرأة بالسعادة ثم لا يتيحها لها ، وأنه يشوه نفسية المرأة الشابة بإجبارها على حياة التكرار والروتين الممل . فبارتباطها بفراش رجل واحد وإثقال ذراعيها بالأطفال تنتهى حياتها . فهى حتى سن العشرين تمتعت بوجود سخى خصب ما بين دراستها وصداقتها وانتظار الحب . وبعد الزواج يتلاشى كل مستقبل أمامها ، فيما عدا هذا الزوج الواحد الذى لا يتيح لها اللذة غالباً . « فالزوج التقليدى أبعد ما يكون عن خلق الظروف الملائمة لإيقاظ رغبة الأنثي الجنسية وتفتحها . وليلة الزفاف التى لم تسبقها التمهيدات الأولية لحب طبيعى تبدو فى نظر البكر وكأنها نوبة سخيفة من نوبات مصاب بالصرع التشنجى » .

وتمضى المرأة الوجودية شارحة مذهبها المعجب فتقول :

« والمثل الأعلى ، فى نظر سيمون ، أن يختار كل شخص الطرف الآخر برغبته ، ويبقى معه برغبته ، بحيث لا يربط كلا منهما إلى الآخر إلا الرغبة التلقائية الحرة النابعة عن حبهما المتبادل .

فالفتاة اليوم تعمل متحررة من كل قيد فى سلوكها ، وتحتك وتلتقى فى عملها وخارج عملها بعديدين من شتّى صنوف الرجال . وهكذا لم تعد فى حاجة إلى الارتباط بما كان يسمى « زواجاً مدبراً » يكفل لها الغذاء والكساء والوضع الاجتماعى اللائق .

إن هذا كله يتيح للمرأة العصرية المتحررة التجارب المتلاحقة ، ولو داخل إطار

الزواج المشروع ، بل لقد ذهبت المرأة إلى أبعد من هذا فى كثير من الأحوال ، فتيسرت للفتاة خارج رابطة الزواج أنواع من الخبرات والتجارب فى الحب والجنس على نحو ما يتيسر للشباب من الذكور سواء بسواء .

وما من شك أن تقدم العلم ، ومبتكرات التحكم فى النسل ومنع الحمل قد وفرت على الفتاة العصرية المتحررة كل متاعب القلق التى كانت تزعج النساء فى العصور السابقة .

وتأسى « سيمون دى بوفوار » أشد الأسى لأن الفتاة غير المتزوجة لم تحصل بعد على حق الأمومة بغير زواج فى نظر المجتمع الحديث ، وترى من حق المرأة أن تكون أماً من غير أن تُرغَم على الارتباط بالزواج !

وتندد بالاحتقار العلنى أو الضمنى الذى يواجه الأمهات من الفتيات غير المتزوجات . يقول « أندريه موروا » : ولكن الحال قد أخذ يتبدل منذ أتمت كتابها ، وكثر عدد أولئك الأمهات وأخذ المجتمع الغربى يعترف بهن » !!!

* * *

وقد تقول : إن الأسرة - فى أوروبا وأمريكا - فوق هذا التصوير ، وإن كانت أسوأ مما يجب .

إن الانحلال عراها ، ولكنها لم تتتلاش ولا تزال لها حدود مرعية !

ونقول : إن كلام هذه المرأة ، نشر فى بلادها ثم ترجم إلينا ، وتدوول بيننا دون أن تصحبه كلمة نكير أو يلحق قائلته لفظ تحقير ! فما معنى هذا !

لقد قُرر هذا العهر على أنه فلسفة عادية ، ووجهة نظر فى الحياة لا غبار عليها ولا عار من ترادها ، فما معنى هذا ؟

ثم ما تكون هذه الأسرة التى تتكون فى جو النكر والإسفاف ؟

شاب يتصل بعشرات الفتيات قبل أن يتزوج ، وشابة تتصل بعشرات الفتيان قبل أن تتزوج !!

أى زواج ذاك الذى يتم بعد هذا الماضى الأسود ؟!

وما هى ضمانات استقامته إذا كانت أسباب العوج لا تزال قائمة هنا وهناك ؟

وقد يكون الإثم دون ذلك فداحة ، بَيْد أن استخفاء القاعدة الدينية فى العلاقات الجنسية يجعل حياة الأسرة مضطربة مائعة .

والقاعدة الدينية أن الرجل لا يحل له أن يتصل بامرأة على ظهر الأرض إلا فى بيت الزوجية ، وأن الزنا منكر هائل ، وأن كل ما يؤدى إليه يجب سد أبوابه ، ومنع أسبابه ...

وعلى الحضارة الفاضلة المؤمنة أن تضبط الأزياء وألوانها ، والاختلاط وميادينه ، وفق حدود اللّه ، وبما يصون الأعراض ويحمى شرف الجنسين على السواء .

إننا نرفع صوتنا عالياً بأن من حق المرأة أن تتعلم ، ولا يستطيع أحد أبداً أن يحرمها هذا الحق ...

لكن مَن قال : إن التبرج والاختلاط ضرورات لا بد منها فى الجو العلمى ؟!

وإذا كان الإسلام يأذن باختلاط ما فى بعض المواطن ، فهو اختلاط مصحوب بالحشمة والحياء وغض البصر وتقوى اللّه ...

وهو يرفض بتة كل اختلاط يسمح بأن يخلو رجل بامرأة ... وبالتالى فهو يستنكر أحفال العرى والمجون التى عرفتها وأشاعتها المدنية الحديثة ..

وللمرأة أن تعمل فى وظائف مناسبة ، وفى ظروف خاصة . لكن على أساس أن عملها الجليل العتيد أن تكون ربة بيت وسيدة أسرة ، وأن يكون جو العمل غير ما تألف المدنية الحديثة .

فلا يليق توظيفها لتعرض أوراقاً على مدير يختلى بها إذا شاء ...

ونحن نعرف أن المرأة فى أوروبا وأمريكا اشتغلت بالمصانع والحقول والشركات والجامعات .

لكن حصاد اللقاء البعيد عن معرفة الله وإتباع شرائعه كان مراً .

.. لقد قرأتُ أنه أمكن التغلب على ضعف إنتاج المرأة ، ولكن القضية عندنا أعمق من أن تكون زيادة الإنتاج أو قلته .

إن إفقار البيوت من النساء ليشتغلن فى بعض المصانع هو فى الحقيقة على حساب تشغيل بعض الرجال فى أعمال أخرى ، لإطعام وحضانة وصيانة هذه البيوت المهجورة ...

ولا ربح هناك إلا انهيار روابط الأسرة ، والسماح بالفوضى الجنسية ، وبذل محاولات لرفع مستوى الإنتاج قد تنجح أو تفشل .

قرأتُ دفاعاً شديداً عن احتراف المرأة ، وتقليدها أى وظيفة كأى رجل .

كان هناك تساؤل : لماذا تسلك المرأة العاملة سلوك الأنثى - لا سلوك الرجل - وكيف يعالج هذا ؟

ثم جاء الجواب بعد إجراء بحوث ذكية فى مصنع كبير للطائرات .

وإليك هذه البحوث كما نشرتها مجلة « المختار » ، قال الكاتب :

« لغز المرأة » مسألة لا ضير منها من حيث هى موضوع للشعر ، ولكن متى بدأ التفاوت الخفى بين سلوك الرجل وسلوك المرأة ، تحدث المتاعب ويعطل إنتاج الطائرات الحربية ، فقد آن أن نهمل الشعر ، وأن نحاول الغوص على الحقائق المكنونة وراء هذا السلوك .

فمن ذلك مثلاً ، أن النساء المستخدمات فى مصانع « كونسليديتد فولتى إير كرافت كوربريشن » أكثر من الرجال ، والغياب بين النساء خمسة أضعاف الغياب بين الرجال ، ومن خمس نساء يعملن لوحظ أن أربعاً يتركن العمل قبل أن يقضين فيه سنة ، وتجنيد نساء أخريات وتدريبهن ليحللن محل اللواتى هجرن العمل ، يستنفد وقتاً ومالاً ، ويشغل العمال الحاذقين بالتعليم بدلاً من الإنتاج .

وقد قررت الشركة أن تبحث الأمر لتقف على السر فى أن المرأة تسلك سلوك

الأنثى ، ولتهتدى إلى العلاج الذى يصون الإنتاج . ولم تهتد الشركة إلى الآن إلى جواب كل سؤال ، ولكن البحث المستفيض الذى قامت به « مارى چاكسون » مديرة اللجنة الاستشارية كشف عن كثير يُعَد جديداً فيما يتعلق بالنساء العاملات .

والنساء المشتغلات فى مصانع الطائرات مجموعة نموذجية وافية ، فأعمارهن تتراوح بين ١٦ و٧٨ سنة ، وترتبيتهن تتفاوت من الأمية إلى إتمام الدراسة الجامعية ، وفيهن المتزوجة ، والعزبة ، والمهذبة ، والعسرة ، والرقيقة ، والشكسة ، والبيضاء ، والسوداء . فخصائص العاملات المجتمعات فى هذه الشركة هى خصائص المرأة ، فى كل مكان وفى كل زمان .

وقد حفلت ملفات المسز « چاكسون » بحقائق غريبة :

إن شجاراً يقع على مائدة الإفطار يؤثر فى عمل المرأة طول اليوم ، فيهبط إنتاجها هبوطاً محسوساً . أما كفاية زوجها فى عمله فلا تتأثر .

وفى كل تسع حالات من عشر ، يكون هبوط إنتاج المرأة راجعاً إلى أمر خارج المصنع . أما فيما يتعلق بالرجل ، فإن السبب يكون فى داخل المصنع .

والمرأة المتوسطة تؤثر الاستمرار فى عمل ألفته مع زميلاتها ، ورئيستها وعلى نظام اعتادته ، على أن ترقى إذا كان معنى الترقية أن تنتقل إلى بيئة جديدة ، أما الرجل فيتلهف على أي تغيير أو نقل يكون معناه التقدم .

والنساء يتأثرن بالنقد الجاف الخشن أكثر مما يتأثر الرجال . فلا بد من أن يكون التأنيب معسولاً ، كأن تقول للمرأة : « إنك يا چين تؤدين على التحقيق عمل اليوم أداء رائعاً ، فلماذا لا تحاولين أن تواظبى على الحضور أكثر مما تفعلين » ؟!

وإثارة التنافس بالجوائز تستحث همم الرجال ، وكثيراً ما تزيد إنتاج القسم كله ، ولكن ذلك بين النساء أسوأ دواء ، فإن أعصابهن تتوتر فيضطربن لفرط

ما يستثرن ، وإذا رأت إحداهن أنها مسبوقة متخلفة ، ثبطت همتها حتى لتكف عن المحاولة ويصبح عملها أسوأ مما كان قبل المسابقة ...

والفتاة الجميلة مبعث متاعب ، فإذا حسن عملها جداً ، ورقاها رئيسها ، أولَ النساء الأخريات بواعثه تأويلاً سيئاً ، وإذا أنبه ، فإن المرجح أن تعد تأنيبه إهانة شخصية ، لطول ما ألفت أن تسلم من العقاب بفضل حسنها وفتنتها .

والمزاح الخشن والمباسطة - وذلك ما تتفتح له قلوب الرجال - لا يصلح للنساء على الإطلاق ، لأنهن يبغين اللمسة الناعمة الرقيقة .

والمتزوجون من الرجال أصلح لملاحظة العمل من العزاب ، ولعل ذلك لأنهم أدرى بالمرأة وأخبر . وقد يكون تفاوتهم غير راجع إلى أكثر من موقفهم اليومى الذى يتخذونه وهم مدركون له ، أو عن غير وعى منهم .

والنساء أكثر استعداداً من الرجال للإقرار بالخطأ ، ولطلب النصيحة ، ولكن عملهن يسوء إذا كان عليهن أن يتصرفن برأيهن ، فلا ينبغى أن تكون هناك طريقتان لعمل تتولاه امرأة ، لأنها تضيع وقتاً طويلاً فى التفكير فى الطريقة التى تتبعها .

وكل هذه الملاحظات تؤدى إلى نتيجة عامة واحدة ، ولكنها ليست فى الحقيقة مستغربة .

ذلك أن المرأة معنية - أولاً وقبل كل شىء - بأنها امرأة ، واهتمامها بأى نوع آخر من النجاح يأتى فى المحل الثانى .

ومن الممكن أن يقال - بحق أيضاً - إن الرجال معنيون أولاً وقبل كل شىء بأنهم رجال ، ولكن كون المرء رجلاً ينطوى على إرادة النجاح فى عالَم الرجال أما كون المرأة ناجحة فقلّما ينطوى على ذلك .

والعمل بأجر شىء تزاوله المرأة حتى تجد الرجل الصالح ، وحتي يجىء الطفل ، وحتى يعود رجلها إلى البيت ، وحتى يكسب « چو » مالاً ، وحتى تؤدى

أقساط ثمن بيتها ، وحتى تكسب الحرب . فهل من استثناءات ؟ نعم ، آلاف منها . ولكن المرأة المتوسطة فى مصنع حربى تتلهف على اليوم الذى تلتزم فيه بيتها . وقد أثبتت دراسات المسز « چاكسون » هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك .

وثَمَّ أمور شتَّى لها أهمية عملية ، فالنساء لا يحسن العمل بالآلات التى تتطلب حركة دائرية مثل المفك . ويجب ألا يعملن فوق مواضع عالية ، فإن اتزانهن ضعيف ورؤوسهن تدور ، وهن خير من الرجال وأسرع إذا زاولن أعمالاً خفيفة منسقة منتظمة . وقد دل البحث فى المتاعب التى تنشأ بين الرجل والمرأة ، فى المصنع ، على أن المرأة هى المعتدية وهى التى بدأت بالشر فى كل ثلاث مرات من أربع .

وقد اتخذت الشركة تدابير للانتفاع بدراسات المسز « چاكسون » ، فكانت النتيجة النجاح ، لأن الغياب بين النساء نقص إلى رقم معقول (٧ر٧٪) يومياً ، وقلّ معدل التغيير فى العمال إلى النصف ، وارتفع الإنتاج إلى ذروة قياسية ، وقد عكفت مصانع الطائرات الأخرى : « كرتيس رايت » ، و« چلين مارتن » ، و« فير تشايلد » و« لوكهيد فيجا » ، و« چنرال موتورز » ، على دراسة تقارير المسز « چاكسون » ، وفى وسع أى إنسان يستخدم نساء أن يستفيد منها كثيراً مما له قيمة .

وكان أهم ما قامت به شركة « كونسوليدنيد » فضلاً عن تلقين الرؤساء المبادىء المستخلصة من الدراسة - أنها درَّبت مستشارين وعيَّنت مستشاراً لكل ٣٥ امرأة عاملة . وهؤلاء المستشارون يؤدون وظيفة ضابط الاتصال بين الجنسين ، وقد أكبرهم الملاحظون من الذكور ، وصاروا الآن يعرضون عليهم من المشاكل ستة أضعاف ما كانوا يعرضون فى الشتاء الماضى .

والعاملات أنفسهن يعرضن عليهم من مصاعبهن ضعف ما كن يعرضن من قبل .

وتتفاوت قصصهن من الشاذ إلى الشجى ، خذ مثلاً « مارى » التى لم تكن تقوم بنصيبها من العمل ، وكان من الجلى أنها شقية ، وقد تبين أن ماري وهى فى منتصف العمر وشديدة الإحساس بجمالها الذى يذبل ، لا تستطيع أن تلتفت إلى عملها ، لأن زوجها يعمل فى نفس القسم مع فتاة جميلة غزلة . وكانت مارى مضطرة أن توليها ظهرها وهى تعمل ، وقد نقلت الفتاة فصار كل شىء على ما يرام مع مارى .

ونقلت فتاة اسمها « فيرا » من الإشراف على قسم التخريم إلى قسم التجميع ، فاستاءت وتجهمت وصارت تضيع الوقت ، وتبين من الأسئلة البارعة أن كبرياءها جرحت ، فقد كانت تشعر بأنها كفؤ لأى رجل فى العمل ، واعتقدت « أنها أنزلت إلى عمل امرأة » ، فأعطيت عملاً فى قسم البرشام فصارت أحذق من الرجال .

وقد نُسِخَ الوهم الخاص بالجنس الضعيف ... بعد استقصاء الحقائق عن النساء العاملات على اختلافهن . فهناك تلك المرأة الصغيرة الجسم - وزنها ٨٩ رطلاً - التى تقطع كل يوم ٢٥ ميلاً من حقل لها مساحته عشرة فدادين مزروعة أشجار فاكهة ، تتعهدها وتعنى بعشرين دجاجة بيوض ، وبقرة ، على حين أن زوجها فيما وراء البحار .

وهناك « ماريان » وهى عاملة على آلة تخريم ، فى الستين من عمرها ، لم تغب ولم تتأخر مرة واحدة فى ١٥ شهراً ، وهى مع ذلك ذات أولاد ثلاثة ترعاهم ، وتشترى حاجاتها من السوق ، وتطبخ طعامها ، وتنام خمس ساعات كل ليلة .

وهناك « مرجريت » وهى امرأة رقيقة الخُلُق فى الرابعة والسبعين ، وسعيدة كل السعادة ، لأنها تستطيع أخيراً أن تربى الطواويس والكلاب من فصيلة « بكينيز » فى حقلها ، وتدفع ثمن أرغن تتلقى عليه درساً كل أسبوع .

وماذا يا ترى سيكون مصيرهن حين يعدن إلى دورهن ؟

تقول المسز « چاكسون » بلهجة الحزم :

« سيصبحن أصلح مما كن زوجات أو ربات بيوت ، وسيقدرن مبلغ تعب الرجل حين يعود إلى بيته من عمله ، وسيعرفن معنى كسب المال ، وأن معناه هو العمل الشاق ، وسيدركن قيمة الوقت ، وكيف يحرصن عليه وينفقنه بحساب ، وسيكون ما تعلمنه من قيمة النظام له أثره فى تدبير شئون البيت . وأهم من ذلك أنهن يتعلمن قيمة معاشرة الناس بالحسنى ، وطيب الحياة فى البيت المتوافق الأهواء ، وأثر ذلك فى إتقان العمل » .

* * *

قرأت هذا الدفاع الحار عن مساواة المرأة بالرجل فى الأعمال والوظائف العامة ، وكيف تغلبت الدراسة والخبرة على العوائق التى اعترضت طريق النساء فى هذا المضمار ...

وفى هذا الدفاع شىء غير قليل من الحق ، وفيه كذلك نسيان لأمور جوهرية ذات بال ..

إن المرأة قد تعمل إذا احتاجت لعمل أو احتاج إليها المجتمع ... ما يصدها عن ذلك أحد ...

أما الزعم بأنها والرجل سواء فى القدرات المادية والمعنوية فذاك ما ننكره .

كيف ، وهى تلد وترضع ؟ وحملها لولدها وحضانتها له يأخذان منها جهداً مضنياً .

ثم هى - من غير الحمل ونتائجه - تراح من العبادات المفروضة فى دورات شهرية منتظمة . فكيف تُكلَّف بالأعمال العادية ويُنتظر منها أن تساوى الرجل فى الإنتاج ؟

ولندع ذلك كله .

إن المشكلة ليست فى عمل المرأة أياً كان نوعه ! المشكلة فى جو ذلك العمل ولون المجتمع العام الذى يتم فيه !

وهنا تبرز طبيعة الإسلام دون غضاضة .

فالإسلام دين يكلف الرجال والنساء بصلوات خمس كل يوم ، وعندما تؤدى هذه الصلوات فى جماعة - ولا بد فى كل أمة مسلمة من قيام هذه الجماعات من الفجر إلى العشاء - فإن الرجال يملأون الصفوف الأولى والنساء يملأن الصفوف المؤخرة .

وعلى النساء أن يخفين زينتهن وأن يرتدين ملابس سابغة .

وعلى كلا الجنسين أن يغض طرفه إذا رأى الآخر .

فإذا حدث أن نظر شخص إلى غيره نظرة مريبة وجب على مَن لاحظ ذلك أن ينهاه عن الإثم وأن يُذكِّره بالله ..

ومعنى هذا كله أن الاختلاط بمدلوله الواسع فى المدنية الحديثة يأباه الإسلام إباءً تاماً ويرفضه رفضاً حاسماً .

إن الجو الذى تعمل فيه المرأة هناك ، فى أوروبا وأمريكا ، جو التكشف ، وإبداء المحاسن ، واختيار الأصدقاء ، وحرية التلاقى والاختلاء ، وحرية الجسد كما يقولون ، أو جو نبذ الدين ظهرياً واجتياح حدوده دون نكير ..

هذا الجو يستحيل أن يقبله الإسلام أو يرضى بدفع المرأة إليه ...

إن الأسرة ذابت فى أقطار أوروبا وأمريكا تحت اللهب الجنسى المشتعل فى هذا الجو .

وبقاياها التى لا يزال بها رمق لا تدل على خير ، ولا تطمئن على غد طهور .

والمسلمون فى فترة عصيبة من تاريخهم ...

لقد داس الاستعمار بلادهم وسخر من تقاليدهم وترك طابعه الخاص على أغلب شئونهم .

وهناك كثيرون ينقمون على وضع المرأة القديم فى البلاد الإسلامية ، ويرون أن الاستظلال بلواء المدنية الحديثة أجدى وأفضل ...

ونحن نرفض الأمرين معاً ، حبس المرأة فى سجن الجهل والقصور وذوبان الشخصية وضياع المكانة ... وإطلاق المرأة فتنة عاتية تنشر الإثم وتبيح المحارم ...

لقد رأينا المرأة فى صدر الإسلام ، لا تقل عن الرجل علماً ، ولا جهداً فى خدمة دينها وأمتها وبيتها وولدها ..

رأيناها فى القادسية واليرموك فى أشرف المواقف وأجدرها بالتكريم ...

ولم نرها أبداً مجندة للترفيه عن الرجال ، ولا رأيناها حسرت عن صدرها وركبتيها باسم العمل فى المكاتب أو المصانع ...

ويبقى أن نتساءل : لمن نكل وظيفة « ربة بيت » ؟ إذا استخرجنا المرأة من البيت لغير ضرورة ملجئة !

إن هذه الوظيفة ، من أرقى الأعمال - لو عقلنا - لأنها إنشاء الحياة وصيانتها وتعهدها حتى تؤدى رسالتها كاملة ..

ونتساءل مرة أخرى : هل يُقبل حكم الله فى تحريم الزنا ، وما يؤدى إليه وما يغرى به ، أم نجعل الزنا - كما تقول عشيقة « سارتر » - أمراً عادياً لا يُستقبح ولا يُستهجن ؟

إن القصة هنا ليست فتوى فرعية فى مشكلة محدودة ! إنما هى قصة الدين من ألفه إلى يائه .. قصة الإيمان بالله وتصديق المرسلين أجمعين !

* * *

خوارق العادات .. معناها ودلالتها

هل نصم آذاننا عن حديث الخوارق التى يذكرها المتدينون عموماً والمسلمون من بينهم ؟

لقد كنت فى صدر شبابى أضيق بهذا الحديث وأميل إلى تكذيبه .

وذلك لأنى رأيتُ نفسى بإزاء سيل من الروايات لو صحّت ما تماسك للكون نظام ، ولما بقيت لقانون السببية حُرْمة .

ولأنى بلوتُ الدهماء والأدعياء فوجدتُ عقول عامتهم تهوى الأساطير وتكره الحقائق .

فهم إذا قالوا أو سمعوا مالوا إلى الخيال والمبالغة ، عقولهم أشبه بالميزان الذى فسد ، فإحدى كفتيه راجحة دون ثقل ، ومثل هذا الميزان لا يضبط المقادير إلا بعد حذف وتحوير .

والخرافيون من الناس آفة الأديان وآفة الأخبار فى كل زمان ومكان ...

ثم إنى مسلم آمنتُ بربى عن عقل يحسن الفهم والاستدلال ولستُ مستعداً لإلغاء كيانى المعنوى بأى ثمن .

ويغلب أن أكوِّن أفكارى من تجاربى الخاصة ، حتى أوفر لها جو اليقين والثقة ، ومن ثَمَّ فإن قَصص الآخرين لا يحظى عندى بالقبول إلا إذا تجاوب مع ما اطمأنت إليه نفسى .

وهناك خوارق للعادات أنبأنا الله عنها فى كتابه ، وهذه نتلقاها جميعاً بالتصديق .. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ ؟ [1] .

وربما نتساءل : هل هذه الخوارق المصدوقة شذّت عن قانون السببية ؟ أم هى منسجمة مع قوانين أخرى لم نحط بها علماً ؟

---

(١) النساء : ٨٧

قد يكون هذا أو ذاك ..

فإن خالق الكون ومبدع نواميسه فوق هذه النواميس ، جلَّ شأنه .

إنه يحكمها ولا تحكمه ، ويقف تنفيذها إذا شاء أو يمضيه فى طريقه ..

ومن العلماء مَن يرى أن قوانين الكون لا تنخرم ولا تتوقف ، لأنه هكذا شاء بارئها .

وما يقع من خوارق إنما يتم وفق سنن كونية قد يكشف عنها العلم أو تبقى مستورة أبداً .

إننى لا أدرى ، ولا غيرى يدرى كيف تمت ولادة عيسى من غير أب ؟ وقد كانت مريم نفسها عاجزة عن فهم ما وقع لها ، وحائرة : ما تقول للناس ؟

وكأن اللّه أراد إشعارها بأن الأمر كله خارج عن النطاق المعتاد ، فألهمها أن تهز إليها بجذع النخلة ، فإذا الأصابع الواهنة تهز الجذع الغليظ ، ليتساقط الرطب فوقها !

ثم يتكلم الوليد فى المهد ، ليبرىء ساحة أمه ، ويشهد بعظمة خالقه الذى يقول للشىء كن فيكون ...

إننا صدّقنا هذا الخبر ، لأن اللّه أنبأنا به ، وهو بلا ريب شذوذ عن القواعد العامة التى تنتظم شئون الخَلْق .

وإلى هنا يمكن أن نقف ..

* * *

لكن البعض يحلو له أن يجعل من الاستثناء قاعدة ، ومن الشذوذ قانوناً ، وهنا الطامة التى تعصف بالدين والعلم معاً !!

وقد ثارت فوضى هائلة فى ميدان التفكير الدينى بسبب هذا التوسع المريب ..

وهو توسع جرثومته الأولى الخرافيون من الناس ومتتبعو الأوهام والغرائب .. أما الدين نفسه فبعيد عن هذا الهوس .

وقبل أن نلقى على هذا الموضوع أضواء تجلو بعض جوانبه نلفت النظر إلى أمور :

* إن الحديث فى خوارق العادات اطرد فى الديانات كلها ، ولم يعرفه المسلمون وحدهم .

* وإنه - كما قرر علماء الإسلام - مقطوع الدلالة على الخير أو الشر أى أن الإيمان الصحيح والعمل الطيب هما وحدهما دليل الخير ، ولو لم يجر أى خارق للعادة على يد المؤمن الصالح ، وأن جريان هذه الخوارق لا يرفع خسيسة امرىء ضعيف اليقين ردىء العمل .

* إن خوارق العادات قد تقع للموحد والمثلث ، بل للمؤمن والمعطل ، ومن ثَمَّ فإن الاستدلال بها على كرامة شخص ما خطأ بالغ .

* إن الكرامة هى معرفة الحق والعمل به لا غير .

وأخيراً .. فإنه من السماجة أن يقول لك أحد الناس : آمن بما وقع لفلان من خوارق ، وإلا فأنت متهم فى دينك !

إننا نؤمن بما حدَّث به رب العزة ، ونصدِّق ما صح عن رسوله ، إن صح الدليل على نسبته .

أما ما يتداوله الناس بينهم من قصص وقعت أو لم تقع ، فلا علاقة لديننا برأينا فيها ، ومزاعم الدهماء فى تلك القضايا لا وزن لها .

* * *

ولنعد للكلام فى الموضوع نفسه ، قرأت كتاب « العقل وسطوته » تأليف الأستاذ الدكتور « ج . ب . راين » ، وهو يحتوى على دراسات علمية تجريبية معملية للظواهر النفسية الخارقة ، كانتقال الأفكار ، والجلاء البصرى ، والتنبؤ ، وقدرة العقل على تسخير المادة ، ووجود الروح .. إلخ .

والكتاب محاولة علمية رائدة للبحث فى جانب من الخوارق التى طال الحديث فيها بين المتدينين .

والمؤلف رجل عالم فطن ، يحترم فكره ويرفض الأساطير أن تعبث به .

وقد حاول بالمنطق التجريبى أن يصل إلى حقائق محددة فى هذا المجال الخفى ...

وصل إلى نقط لها قيمتها ، بَيْد أنه شعر وأشعرك معه أن الموضوع أعقد مما يُظَن .

وقد أكننت الاحترام لهذا الباحث ، لما لمسته فيه من إخلاص فى طلب الحقيقة ، ودقة فى تحريها .

يقول الدكتور « محمد الحلوجى » ، مترجم الكتاب ، إنه بدأ بحثه بابتكار طريقة سهلة يمكن إحكام ضبطها وتطبيق كل مطالب التجربة العلمية الصحيحة عليها ، من ذلك : البساطة وسهولة الإعادة ، والتكرار والدقة فى اختيار ظروف التجربة وشدة الرقابة عليها .. إلخ . مما سيتبينه القارىء بنفسه .

وبهذه الطريقة التجريبية العلمية الدقيقة بدأ بالبحث فى ظاهرة « انتقال الأفكار » (التلباثى) ومعناها هو إدراك الشخص لأفكار فى ذهن شخص آخر ، دون تدخل الحواس الخمس المعروفة ، وهى : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

وأثبت وجود هذه الظاهرة .

ثم بحث عن وجود علاقة بين ظاهرة التلباثى والجلاء البصرى ، أى إدراك الأشياء والحوادث بغير طريق الحواس ، فوجد أنهما مظهران لشىء واحد يخضع لنفس القوانين ولذلك سماهما مجتمعين : الإدراك خارج الحواس ، ويكنى عنها باختصار « خ » .

ثم قام بالبحث عن القوانين التى تخضع لها ظاهرة الإدراك خارج الحواس هل هى القوانين المادية المعروفة ، أو بمعنى أبسط هل هذه الظاهرة عبارة عن نوع من التموجات المعروفة فى علم الطبيعة ؟ ونظرية التموجات أو الأمواج يخضع لها

كل أنواع الطاقة . فالطاقة الحرارية تنتشر فى صورة أمواج ، وكذلك الصوت والضوء والكهرباء .. إلخ .

ومعروف أن الطاقة إذا سارت على شكل أمواج تخضع للقانون المعروف بقانون التوسع العكسى ، وكان أول اكتشافه على الجاذبية الأرضية .

ومؤداه أن كل جسمين يجذب أحدهما الآخر بقوة تتناسب طردياً مع كتلته (أى ما فيه من وزن) ، أى أن الكتلة أو الجسم الكبير يجذب بقوة أكبر من الجسم الصغير . كما تتناسب هذه عكسياً مع مربع المسافة ، أى أنه إذا زادت المسافة بين جسمين يجذب أحدهما الآخر إلى الضعف ، فإن قوة الجاذبية تنخفض إلى الربع أى مربع المسافة .

ولكنه وجد أن « خ » لا تخضع لهذا القانون ، فهى تزيد بزيادة المسافة ولا تنقص . ومن هنا تنبه ثم أثبت أن هذه القدرة على الإدراك خارج الحواس ليست مادية .

ثم انتقل إلى نقطة ثانية فى البحث ، وهى أنه إذا كان « خ » لا يخضع لقوانين المكان فهل يفعل المثل مع قوانين الزمن ؟ أى أن هذه القدرة تستطيع أن تسبق الزمن ، فأثبت أنها فعلاً تسبق الزمن ولا تخضع له . ومعنى ذلك القدرة على التنبؤ .

ما معنى هذا ؟ معناه : أن للشخصية الإنسانية جانباً يستطيع الإدراك دون استعمال الحواس . فما هو هذا الجانب ؟ إنه لا يمكن أن يكون المخ ، لأنه مادة والمادة تخضع لقوانين المادة ، ولكن هذا الجانب لا يخضع لقوانين المادة .

وهنا كذب زعم الماديين بأنه ليس هناك شىء اسمه العقل ، وكل ما هنالك هو المخ ومجموعة الأعصاب ، فهى المسئولة عن كل تصرفات المرء من تفكير وشعور وإرادة وسلوك . وأبرز مَن تزعموا هذا الرأى فى علم النفس هم الذين يطلقون عليهم المسلكيين ، وعلى رأسهم العالِم الأمريكى « واطسن » الذى يقول : « لا تكلمنى عن الروح ، فلم أرها تخرج فى أنبوبة اختبار فى المعمل » !

وبديهى أن يرفض الماديون كل كلام وراء المادة ، إلا أنهم يشردون عن منطق العلم بهذا الرفض ويتورطون فى جهالات أغلظ من التى يتهمون بها خصومهم .

وقد مِلتُ إلى تصديق الدكتور « راين » فى مؤلفه القيم ، لكن الرجل لم ينجح فى حملى على اليقين بما بلغ إليه ..

وبعد سنين من قراءة هذا البحث وقع فى يدى كتاب « الإنسان ذلك المجهول » للدكتور « ألكسيس كاريل » ، وهو عقلية علمية رائعة ، فبهرنى منه أنه أكد النتائج التى انتهى إليها الدكتور « راين » .

ومن الخير أن نتدبر كلامه فى هذا الموضوع ، قال : « إن إدراك الحقيقة من غير معاونة العقل مسألة تبدو غير مفهومة ، وثَمَّ جانب من جوانب العقل يشبه سرعة الاستنتاج من الملاحظة العجلى ... ومن الحالات التى لها هذه الطبيعة ما يعلمه بعض كبار الأطباء أحياناً عن حالة مرضاهم الراهنة والمستقبلة » .

وتحدث ظاهرة مماثلة حينما يقدِّر المرء قيمة أحد الرجال لأول وهلة ، أو يشتم فضائله ورذائله ..

ولكن سرعة الإدراك يمكن أن تتوافر من ناحية أخرى ، وهى مستقلة استقلالاً تاماً عن الملاحظة والعقل .. فقد تقودنا إلى هدفنا فى وقت لا نعلم فيه كيف نبلغ هذا الهدف ، بل حتى لا ندرى أين يوجد .. وهذه الطريقة من المعرفة تكاد ترادف البصر المغناطيسى ، وهو الحاسة السادسة التى نادى بوجودها « تشارلس ريخت » .

إن البصر المغناطيسى وتراسل الأفكار معلومات أوُلية للملاحظة العلمية ، وفى استطاعة مَن وُهِبت لهم هذه القوة أن يستشفوا أفكار الأشخاص الآخرين السرية من غير أن يستخدموا أعضاءهم الحسية ..

كما أنهم يحسون بالأحداث السحيقة ، سواء من الناحية الفراغية أو من الناحية الزمنية . وهذه الصفة استثنائية ، وهى لا تنمو إلا فى عدد قليل فقط من بنى الإنسان ؛ إلا أن هناك كثيرين يملكون هذه الصفة بحالة بدائية .. وهم

يستخدمونها من غير بذل أى جهد وبطريقة تلقائية .. ويبدو البصر المغناطيسى مسألة عادية لمن يملكونه ، وهو يجلب لهم معلومات أكثر توكيداً من المعلومات التى يحصل عليها الإنسان بوساطة أعضاء الحس . فصاحب البصر المغناطيسى يقرأ أفكار الآخرين بسهولة لا تضارعها إلا سهولة قراءته لأسارير وجوههم - ولكن كلمتى « رؤية » و« شعور » لا تعبران بالدقة عن الظاهرة التى تحدث فى شعوره ..

إنه يلاحظ ، ولا يفكر ، إنه يعرف .. ويبدو أن قراءة أفكار تتصل بالإلهام العلمى والذوقى معاً ، وكذلك بتراسل الأفكار .. وتراسل الأفكار كثير الحدوث .. ففى كثير من المناسبات ، فى أوقات الموت أو الخطر العظيم ، يدفع الفرد على إنشاء علاقة معينة بشخص آخر ، فالرجل الذى كتب عليه الموت ، أو أن يصبح ضحية إحدى الحوادث ، وإن لم تعقب الوفاة إصابته فى الحادث ، يبدو لصديقه وكأنه فى حالة طبيعية لا غبار عليها ، لأن شبح الموت يظل عادة صامتاً . وقد يحدث أحياناً أن يعلن الشخص الذى سيموت أنه سيموت عما قريب ... وكذلك فإن ذا البصر المغناطيسى قد يرى أيضاً منظراً أو شخصاً أو قطعة من الأرض على بُعْد سحيق ، ويكون فى استطاعته أن يصفها بدقة تامة .. وهناك صور كثيرة لتراسل الأفكار ، فإن عدداً من الأشخاص تلقوا ، مرة أو اثنتين ، فى حين حياتهم رسالة تلقائية على الرغم من أن الله لم يهب لهم نعمة البصر المغناطيسى .

وهكذا فإن معرفة العالم الخارجى قد تصل إلى الإنسان عن طريق مصادر أخرى غير أعضاء الحس .. ومن المحقق أن الفكر قد ينتقل من فرد إلى آخر ولو كانت تفصل بينهما مسافة كبيرة .. وهذه الحقائق التى تنتمى إلى علم ما وراء النفس الجديد يجب أن تُقبل على علاتها ... أنها تكون جزءاً من الحقيقة .. وتعبر عن جانب نادر يكاد يكون غير معروف من أنفسنا ... ومن الجائز أنها مسئولة عن الدقة العقلية الحاذقة التى تُلاحَظ فى أفراد معينين ..

وواضح أن هذا الكلام تأييد لما سبقه ..

كلا المؤلفين يرى أن فى الإنسان طاقة مبهمة يستطيع بها أحياناً أن يدرك أشياء يستحيل إدراكها بالحواس المعتادة والطرق المألوفة ..

والدكتور « راين » يذكر لنا وقائع محددة تشهد لما يقول ..

وسنذكر هذه الوقائع لافتين النظر إلى أنها تكاد تكون مطابقة للوقائع التى نرويها نحن المسلمين عن بعض الرجال المرموقين فى تاريخنا ..

وهذا التشابه يدعم رأينا فى تجربة هذه الخوارق من الدلالات المثيرة التى يتحمس لها العامة عندنا حماسة تخرجهم عن الوعى .

ويحسن أولاً أن ننقل ما كتبه الأستاذ الدكتور « ج . ب . راين » فى هذا الموضوع ، قال :

« هناك أمثلة كثيرة على أن العقل يستطيع أن يتخطى المسافات ، فالإدراك الذاتى لحوادث بعيدة لم يكن هناك مجال للإلمام بها بالطرق المعروفة يتردد ذكره كثيراً .

هذه الأحداث الروحية تملأ كثيراً من الصفحات فى العالم « الباراسيكولوچى » غير التجريبى .

ومن أشهر الأمثلة ذلك الذى يرويه الفيلسوف الألمانى « عمانويل كانت » فى كتابه عن « عمانويل سويدنبرج » .

فبينما كان « سويدنبرج » فى جوتنبرج فى عام ١٧٥٩ استطاع أن يصف حريقاً يحدث فى استكهولم على بُعْد . . ٤ ميل منه . وقد قدّم وصفاً تفصيلياً للحريق للسلطات الموجودة فى المدينة ، كما أعطى اسم صاحب المنزل الذى احترق والساعة التى انتهت فيها عملية الإطفاء .

وبعد ذلك ببضعة أيام وصل رسول ملكى وأكد الجلاء البصرى الذى حدث .

ومن خواص هذه الحوادث أنها لا صلة لها بالمكان . فالأحداث الذاتية فى جميع الأنواع فى « الباراسيكولوچى » مثل الجلاء البصرى فى الأحلام والرؤى والإنذارات والإلهام لا تتأثر إطلاقاً بالمسافات .

وانتقال الفكر قد يحدث بين اثنين على بُعْد آلاف الأميال التى تفصل أحدهما عن الآخر كما يحدث وهما فى نفس المنزل ..

وقد يشعر أحد الأقارب بموت قريب له أو صديق عزيز عليه والاثنان فى طرفى العالَم .

وقد أخبرنى أحد أصدقائى من علماء النفس مرة أن ابناً له كان يعيش فى جاوه منذ سنين مضت ، فرأى فى المنام جنازة تمر بشوارع مدينته الأصلية فى « كارولينا » الجنوبية بأمريكا ، وكان المنام واضح التأثير عليه لدرجة أنه كتب إلى أهله يسألهم إن كان ثَمَّ شىء حدث ؟

واتفق وقت الحلم مع جنازة والدته التى ماتت فجأة .

وقد وقف بعمل « الباراسيكولوچى » حبر عظيم وزوجته ليرويا حادثة مشابهة . فبينما كانا على سفر فى سويسرا منذ سنوات مضت شعرت الزوجة بشعور لا يمكن أن يوصف بأن أختها فى شيكاغو قد ماتت . وكانت الفكرة غير معقولة لدرجة أنها قررت ألا تخبر أحداً بها .

وبعد ذلك بأيام قلائل أحست بأن من المحقق أن أختها قد دفنت .

وفى هذه المرة أخبرت زوجها الذى كتب مفكرة بهذا الأمر ، ولو أنه كان فى شك من حدوثه . وعندما وردت إليهما الأنباء تأكد لديهما أن أختها قد ماتت ودفنت فى نفس التواريخ التى أحست بها .

وحادثة أخرى ذكرها لى مدير جامعة كبيرة ، فقد كان من واجبه مرة أن يبلغ زوجين أمريكيين بوفاة ابنهما فجأة فى الصين . فعندما سمعا النبأ المحزن استدار الأب للأم وقال لها : لقد كنتِ على حق .

فقد أبلغته قبل ذلك بعدة أيام أنها متأكدة أن ابنها مات .

وقد وقع كثير من هذه الحوادث « الباراسيكولوچية » أثناء الحرب . وفى هذه الحوادث كانت تشعر الزوجة أو الأم أو الخطيبة لرجل فى القوات المسلحة بإصابته أو وفاته فى نفس الوقت الذى تمت فيه الفاجعة .

وفى معظم الحالات كانت الفكرة تأتى للشخص عابرة مسافات شاسعة من الأراضى والجبال والبحار .

ومعنى هذه التجارب الشخصية واضح بما فيه الكفاية .

ولكن هناك سؤال واحد حول هذه الحقائق نفسها .

فقد أمكن أن نتثبت من أن « أ . خ . أ » كان هو العامل الفعال فى هذه الحالات ، فإنها تشير إلى أن هذا النوع من النشاط العقلى لا يخضع لحدود المكان التى تخضع لها العمليات العقلية الأخرى ، ولو كان ما نعالجه موضوعاً عادياً لاكتفينا بالمجموعة الكبيرة من الحالات « الباراسيكولوچية » التى وردت عن أشخاص موثوق بهم كدليل كاف .

ولكن ما نعالجه ليس موضوعاً عادياً ، وإن مشكلة هامة كالتى نحن بصددها – وهى مشكلة : هل العقل نظام مادى بحت أم لا ؟ تحتاج لأصح الأدلة أساساً ، وهذه الحالات الذاتية لا تعتبر دليلاً ، لكنها تصلح هدفاً للتجارب العلمية بعد ذلك » .

* * *

نقول : وهذا استنتاج حصيف ، فإن العالِم لا يتلهف على تقرير نتيجة ما لأول ما يلحظ من وقائع إلا بعد استعراض وقائع شتّى فى ظروف مختلفة حتى يمكن إرساء الحقيقة العلمية فوق أرض لا تميد .

وقد تناول الطبيب العلامة « ألكسيس كاريل » هذه الوقائع بطريقته الخاصة .

فتحدث أولاً عن أصحاب الخوارق التى رآها ، مبيناً أنهم ليسوا طلاب منفعة ، أو هواة مصلحة قريبة ، إنهم مؤمنون فدائيون يضحون بأرواحهم فى سبيل مبادئهم ، قال :

« إن الأشخاص الذين يتبعون مُثُلاً خُلُقية أو علمية أو دينية عليا لا ينشدون الأمان أو طول العمر . بل هم يضحون بأنفسهم فى سبيل هذه المُثُل العليا .

ويبدو أيضاً أن حالات معينة من الشعور تحدث تغييرات باثولوچية (مرضية) حقيقية . فقد تعرض أكثر المتعبدين الكبار لمتاعب « سيكولوچية » وعقلية ولو لفترة محدودة من حياتهم .

وعلاوة على ذلك فقد يقترن التأمل بظاهرة عصبية تشبه ظواهر الهستريا أو البصر المغناطيسى .

وإننا لنقرأ فى تاريخ القديسين وصفاً لحالات الذهول واتصال الأفكار ، ورؤية أحداث وقعت على بُعْد ، بل صوراً للطيش أيضاً !

وقد قرر بعض رفاق العابدين المسيحيين أنهم أبدوا ميلاً هذه الظاهرة الغريبة . فكان المتعبد يستغرق استغراقاً تاماً فى عبادته فلا يعى العالَم الخارجى مطلقاً . ومن ثَمَّ فإنه لا يلبث أن يرتفع برفق عن الأرض . بَيْد أنه لم يمكن حتى الآن الإتيان بهذه الحقائق الخارقة إلى محيط حقل الملاحظة العلمية .

وقد يحدث نشاط روحى معين تعديلاً تشريحياً ووظيفياً فى الأنسجة والأعضاء . وتُلاحَظ هذه الظواهر العضوية فى ظروف مختلفة ، من بينها حالة العبادة .

فالصلاة ، كما يجب أن تُفهم ، ليست مجرد ترديد آلى للطقوس ، ولكنها ارتفاع لا يدركه العقل .

إنها استغراق الشعور فى تأمل مبدأ يخترق عالمنا ويسمو عليه .

ومثل هذه الحالة « السيكولوچية » ليست عقلية ... إن الفلاسفة والعلماء لا يفهمونها ، كما أنها صعبة المنال عليهم .

ولكن يبدو أن الشخص المتجرد من حب متاع الدنيا يشعر بالله بمثل السهولة التى يشعر فيها بحرارة الشمس أو بعطف أحد أصدقائه عليه .

إن الصلاة التى تعقبها تأثيرات عضوية ، ذات طبيعة خاصة ، فهى أولاً لا تهتم بالذات ، إذ يقدم الإنسان فيها نفسه لله ، فيقف أمامه كما تقف

« اللوحة الفنية » أمام الرسام ، والتمثال أمام النحّات ، وهو يطلب منه ، جلّ جلاله ، أن يسبغ عليه رحمته ، ثم يكشف له - سبحانه وتعالى - عن مطالبه ومطالب إخوانه من المرضي . وفى العادة يشفى المريض ، الذى لا يصلى من أجل نفسه ولكن من أجل شخص آخر .

ويتطلب مثل هذا النوع من الصلاة إنكار الذات إنكاراً تاماً ، وهذا نوع سام من الزهد والتقشف ..

والرجل المتواضع والجاهل والفقير أكثر اقتداراً على إنكار الذات من الرجل الغنى والمثقف .. وحينما تكتسب الصلاة مثل هذه الصفات فقد تؤدى إلى حدوث ظاهرة غريبة هى « المعجزة » (هكذا يعبر) .

ففى جميع البلاد والأزمان آمن الناس بوجود المعجزات وشفاء المرضي سريعاً فى أماكن الحج ، وفى معابد معينة ، بَيْد أن قوة العلم الدافعة إبّان القرن التاسع عشر جعلت مثل هذا الإيمان يختفى اختفاءً تاماً ..

ولقد كان المعترف به بصفة عامة أن مثل هذه المعجزات لم تحدث فحسب بل إنها مستحيلة الحدوث أيضاً ، فكما أن قوانين علم الحرارة « الديناميكى » تجعل الحركة المستمرة مستحيلة ، فإن القوانين « السيكولوچية » تعارض المعجزات .

ذلك هو إذن موقف علماء النفس والأطباء ..

ومع ذلك فبالنظر إلى الحقائق التى لوحظت فى خلال الخمسين عاماً الأخيرة لن يكون فى الإمكان الإصرار على هذا الموقف ، فإن أكثر حالات الشفاء الإعجازى أهمية هى التى سجلها المركز الطبى لـ « لورد » ..

أما فكرتنا الحالية عن تأثير الصلاة على الأمراض « الباثولوچية » فقائمة على ملاحظة المرضى الذين شفوا فوراً من مختلف الأمراض مثل سل البريتون ، والخراجات الباردة ، والتهاب العظام ، والجروح العفنة ، وسل الأنسجة ، والسرطان .. إلخ .

وتختلف عملية الشفاء قليلاً من شخص لآخر ، وغالباً ما يشعر المريض بألم حاد يعقبه على الفور إحساس مفاجيء بالشفاء .. فى ثوان معدودة ، أو دقائق معدودة ، أو على الأكثر فى ساعات معدودة .

ثم تلتئم الجروح وتختفى الأعراض الباثولوجية (المرضية) ويسترد المريض شهيته .

وقد تختفى الاضطرابات الوظيفية أحياناً قبل أن تصلح الجروح التشريحية . وقد تستمر التشوهات الهيكلية الناتجة من « مرض بوت » أو الغدد السرطانية ، يومين أو ثلاثة أيام بعد شفاء القروح الرئيسية ...

وتتصف المعجزة الرئيسية بسرعة متناهية فى عملية الإصلاح العضوى وليس هناك شك فى أن درجة التئام النقائص التشريحية أكثر بكثير من الدرجة العادية . بَيْد أن الشرط الذى لا مفر منه لحدوث الظاهرة هو : « الصلاة » .. إلا أنه لا توجد ضرورة تدعو المريض نفسه للصلاة ، أو أن يكون على أية درجة من الإيمان الدينى . وإنما يكفى أن يصلي أحد الموجودين حوله .

إن لمثل هذه الحقائق مغزى عظيماً .. فإنها تدل على حقيقة علاقات معينة ، ذات طبيعة ما زالت غير معروفة ، بين العمليات السيكولوجية والعضوية ، وتبرهن على الأهمية الواضحة للنشاط الروحى التى أهمل علماء الصحة والأطباء والمربون ورجال الاجتماع دراستها إهمالاً يكاد يكون تاماً » .

* * *

ومن حق القارىء - بعد الوقوف على هذه النقول الأجنبية - أن يسأل : إلى أين تذهب بنا ؟

وما هذه السياحة الغريبة المريبة ؟

ونجيب بأن الأمر يتطلب تلخيصاً لوجهة النظر الإسلامية يضع الحق فى نصابه وينفى أسباب الريبة والبلبلة .

اتفق علماؤنا على أن الله يؤيد رسله بخوارق للعادات تتسم بالوضوح والعلانية وتقترن بالتحدى ودعوى النبوة .

وهذه الخوارق توصف بأنها معجزات ، وهذا الوصف الخاص لا ينسحب على أى خارق آخر ..

وما يجرى على ألسنة الكُتَّاب مخالفاً ذلك فهو بعيد عن مصطلحنا الإسلامى ..

واتفق علماؤنا على أن هناك خوارق لعادات تقع للنساك والفساق والأشخاص العاديين ..

ومعنى وقوعها لهذه الفئات المختلفة من الناس ، أنها - كما أسلفنا القول - لا تدل على امتياز أدبى أو ارتضاء إلهى ..

لعلها قدرات روحية خاصة ! ألا ترى أن رفيقى يوسف الصدِّيق فى السجن رأياً رؤيا جاءت كفلق الصبح ، مع أنهما كانا مشركين ؟ أحدهما عاش يسقى الملك خمراً ، والآخر قُتِل صلباً .

وهذا الملك نفسه ، ما كان مؤمناً ، ومع ذلك صدقت رؤياه وأنقذت مصر من مجاعة !

إن الكيان الروحى لبعض الناس بشبه الكيان المادى لبعض الملاكمين أو طوال البصر ..

الجسم الأيد أو البصر الحديد لا علاقة لهما بالصلاح والطلاح ، كذلك أمر قراءة الكف والجلاء البصرى وما شابه ذلك ، لا صلة له بإيمان وكفران ..

وربما قدر البعض بالمران والرياضة على تنمية مواهبهم الروحية ، ووصلوا بذلك إلى أشياء كثيرة ذات بال .

ومن العلماء مَن اكترث بهذه الحوادث وتوفر على دراستها كما رأينا .

ومنهم مَن رفضها جملة وتفصيلاً ، لأنه استبعد وقوعها وجادل فيه بعنف .

أو لأن ركاماً من الأوهام والخرافات يقترن بهذه الحوادث حتى يختفى الصحيح وسط المزعوم ، مما يزهد الباحثين فيها كلها .

وكان يجب على المسلمين ألا تستخفهم أنباء هذه الخوارق ، وألا يغتروا بأصحابها ، سواء أكانوا صادقين أم كاذبين .

لكن ما حدث كان على الضد ، فقد عدوا كل خارق للعادة كرامة من الله لمن تلبّس به ..

فإذا بدا أنه لا يصلى مثلاً فى المسجد المألوف للجُمَع والجماعات . زعموا أنه - وهو فى القاهرة - يصلى بالمسجد الحرام !!!

وفى نفوس العوام بلاهة ، ولهم حاجات ، ومن ثَمَّ يكثرون فى ساحة هذا الولى المزعوم ، يطلبون منه صنع الخوارق وقضاء المآرب !

وإلى هنا يمكن أن نقول : جمهور ساذج يوشك أن يفيق من غفلته .. ولكن الذى لا يُقبل هو حماسة بعض العالمين أو المتعالمين فى إثبات هذه الخوارق ، وتزكية أصحابها .. ونقل ذلك إلى مظاهر الإيمان بالله واليوم الآخر ...

وقد درسنا ونحن أطفال كتاباً فى العقيدة قام نصفه على هذه السخافات ! وهذا شىء بارد .

فلا حُسْن الإيمان يقتضى وقوع خارق ، ولا وقوع خارق دليل على حُسْن الإيمان ..

وفيما قصصنا من أنباء غير المسلمين ما يكشف وجه الحقيقة .. وقد أطلنا النقل لهذا السبب .

والأقرب إلى طبيعة الإسلام ، تعليم الجماهير ، احترام القوانين العامة ، شرعية أو عقلية أو كونية ، وحماية التفكير الدينى من شطحات الملتاثين .

فإذا وقع ما يخالف المعتاد ، رُدَّ الأمر إلى الفاقهين ليدرسوه ، ويقولوا فيه كلمتهم ، بعيداً عن الأجواء المحمومة ، والتهم الطائشة ..

جاءنى يوماً رجل مشهور بالإيمان والطيبة وقال لى فى استحياء ولوم : سمعتُ أنك هاجمت الإمام الحسين ، وزوّار ضريحه ، ووصفته بما لا يليق !

فقلت له وأنا دهش : كيف ؟

قال : كنتَ تشرح عقيدة التوحيد ، فوصفتَ قاصدى القبر الشريف بكلمات رديئة !

... وصفتهم بأنهم أشخاص أعجبهم قصر منيف ، فبدل أن يتجهوا بالإعجاب إلى بانيه ، اتجهوا بمدائحهم ورغباتهم إلى إحدى درج السلم أو إحدى سلال المهملات !

قلتُ لمحدثى : أما أنى هاجمتُ الحسين ، فواللّه إنى أحب الحسين وأباه وجده ، ووددتُ لو كان لى شرف الموت فى كربلاء ، أو صفين ، أو إحدى الغزوات !

وما خطر ببالى يوماً أن أسىء إلى رجل أو امرأة من آل البيت . وإنى لأرى حبهم ديناً وكرههم فسقاً ..

وأما أنى تحدثت فى عقيدة التوحيد ، فنعم .

ومن الرسول وآل بيته تعلمنا هذا الحديث ، وقد قلتُ فعلاً : إن الذى يدع اللّه ربّ العالمين ، ويتجه إلى شىء من الأشياء ، أو شخص من الأشخاص يطلب منه ما لا يُطلب إلا من اللّه فهو ضال !

وقد كنتُ فى كلامى أهاجم الوثنية ، ولا أطعن فى أحد ، وما خطر ببالى قط أمر الإمام الحسين .

قال : لقد كنتَ تخطب فى الجامع الأزهر ، وهو قريب من مسجد الحسين ، فليس عجيباً أن يكون كلامك اعتراضاً على روّاده ، ولماذا تقول كلاماً يفيد ترك الوسيلة !

قلت : إذا أقبل أحد على اللّه بقلبه ، وشرع يوجه العبادة إليه وحده ، ضاقت بذلك أفئدتكم وتصيدتم له التهم ، وطلبتم منه العبث !

كيف تجىء إلى إنسان تعلّقت باللّه مشاعره ، وارتبط به خوفه ورجاؤه لتقول له : اعرف فلاناً أو توسل بفلان ؟

إن جماهير المسلمين لو عاشت وماتت وهى لا تعرف فلاناً هذا ما نقص إيمانها ذرّة ! فكيف تقحم أنت على صلتها باللّهِ ما لا جدوى منه - على أخف الفروض ؟

يا الله ، هل حديث التوحيد يجعل صاحبه ظنيناً ، ويعرضه للقيل والقال ؟

قال : كأنك تنكر كرامات الأولياء ومكانتهم عند الله !

قلت : وما علاقة هذا كله بتوحيد الله وإفراده بالدعاء ؟ إن للصالحين عند الله مكانة تخلدهم فى نعيمه المقيم ورضوانه العميم ..

وقد بلغوا هذه المكانة بصدق العبودية ، وإبداء الذل والاستكانة فى الحضرة الإلهية ، ونحن مكلّفون أن نصنع مثلهم ، أو نقترب من شأوهم إن لم نبلغه ..

فما هذا التسكُّع حول أسمائهم ، وابتداع أساليب فى مرضاة الله ما أنزلها ولا أذن بها ؟

ومرة أخرى .. كيف تجيء إلى قلب فرغ من المخلوقين إلى الخالق ، وخلص من العبيد إلى السيد ، لتقول له : اقسم مشاعرك بين الله وفلان ؟

وما علاقة ما يُنسب إلى هؤلاء الأولياء من خوارق وبين صدق العقيدة !

ما هذا الحمق ؟

إن الخاصة الأولى فى الإسلام أنه دين التوحيد المطلق .

ويظهر أن بعض الناس تهبط طبائعهم دون ذلك فيجنحون إلى الأوهام المجسمة لينشئوا علاقات معها ، تنمو على حساب التوحيد الخالص !

وقديماً عندما هاجم التتار بغداد ، سُمِع بعض المغفلين من هؤلاء يقولون :

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبى عمر !

ولا أعرف أبا عمر هذا ولا قبره ، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ، فإن اللياذ به لا يغنى شيئاً .

وقد سقطت بغداد ، وأعمل السيف فى رقاب الرعاع اللائذين به ..

وكان بعض الحشاشين فى القاهرة يستكثر أن يحتلها الإنجليز وفيها قبر فلان وفلان من الأئمة !

ماذا دهى المسلمين حتى سرت بينهم تلك الخزعبلات ؟ فإذا شرحتَ عقيدة التوحيد فى أدب وتيسير جاء مَن يتهمك بعداوة الصالحين !

ذلك ، أما خوارق العادات التى شاع ذكرها واستفاض فى ميادين التعبد والولاية ، فأولى بالمسلمين ألا يتجاوزوا بها دلالتها المحدودة ، فهى - لو صحّت - ما كانت أمارة على قربى من اللّه ، ورفعة درجة عنده .

فكيف ، وأغلب هذه المرويات نسيج خيال أو مبالغات سذج ؟

والخلاصة ، إننا نحترم قوانين الأسباب والمسببات احتراماً تاماً ..

ولكننا نعلم أنه ما من سبب يبلغ غايته إلا بإذن اللّه المشرف على إيجاده وإمداده ، وأنه ، جلّ جلاله ، لو شاء وقفه فما مضى إلى هدفه .

فليس هناك مانع عقلى من هذا الانفكاك بين الأسباب والمسببات .

يبقى بعد ذلك التساؤل : هل وقع ذلك ؟

والجواب : أن أهل الأديان قاطبة نسبوا إلى أنبيائهم هذه الخوارق ، وصح لدينا وقوعها ، لأن اللّه بذلك أخبرنا . فلا معنى لإنكارها .

أما بعيداً عن جو النبوات ، فالأمر بين أخذ ورد ، وإنكار وإثبات .

ومع التسليم بوقوع هذه الخوارق ، فهى لن تشهد لأصحابها بخير ، لأن نهج الخير له دليل فذ ، هو الإيمان الحق والعمل الحق .

والكرامة التقوى ، وليست وقوع الأعاجيب !

ثم إننا لسنا مكلّفين فى هذا الميدان بتصديق أو تكذيب .

* * *

ويبقى الحديث عن الأمراض التى شفيت بأساليب خارقة ..

ونحن المؤمنين باللّه نعرف أن رحمة اللّه وسعت المؤمن والكافر فى هذه الدنيا ، وأنه ، جلّ جلاله ، يمد صنوف الناس بأسباب الحياة والبقاء وإن تمرد بعضهم عليه !

إنه لا يقطع مدد الدم عن القلب الكفور ، ولا فيض الوجود عن الفكر التائه .

﴿ كُلاً نُّمدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ (١) .

فإذا مرض مشرك ، أو أحرجته أزمة ، أو أطبقت عليه ظلمة ، فصاح بالله يسأله الغوث ويطلب منه النجدة ، فإن الله أهل اللطف والفضل ، وهو يجيب الدعاء ... قال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وأى غرابة فى ذلك ؟ إن الشخص ينكر وجود الله ، ومع ذلك فإن الله يملأ بطنه بالطعام ويكسو بدنه بالرياش ... فهل إذا نقصه بعض ما ألفه يصعب عليه أن يرده إليه ؟

كلا ، والأمر كله اختبار طويل الأجل ، يمتحن الله عبده بالنعمة الجزيلة ، والمصيبة الفادحة ، ليكون تقليبه بين السراء والضراء موقظاً لضميره ، ومنبهاً لعقله ..

فإذا استفاق من غفلته وآمن بالله وحده ، وأحسن العودة إليه نجا ، وإلا هوى .

وفى ذلك يقول الله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٣) ..

---

(١) الإسراء : ٢٠ (٢) الأنعام : ٦٣ - ٦٤ (٣) يونس : ٢٢ - ٢٣

فليس عجباً إذن أن يجثو فى ساحة اللّه مريض من أية ملّة يجأر بطلب العافية من علّة أعجزت الطب ، فإذا داؤه ينزاح ، وسقامه يذهب .

كيف وقع ذلك ؟ لا ندرى !

والمهم ليس فى الشفاء ، بل فى معرفة اللّه بعده على وجه صحيح ، والقيام بشكره على نِعَمٍ لا يحصيها عد ..

وقد تقع فى أوساط المتعبدين أمور من هذا القبيل الخارق ، فيكون ما يُلحظ منها باعثاً على دعاء اللّه بما يجيش فى النفس من حاجات متعسرة !

ألا ترى زكريا عندما رأى الأرزاق تنهمر على مريم دون أن يعرف مأتاها : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

وكان زكريا توّاقاً إلى أن يكون له ابن ، بَيْد أن الشيخوخة أدركته ، وزوجته إلى جانب ذلك عاقر ، فلا أمل من الناحيتين .

غير أن ما وقع لمريم مخالفاً للعادة أشعل أمله فى جانب اللّه ، وقوى رجاءه أن يحدث له ما حدث لها : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ (٢) ..

وتساءل زكريا : كيف يتم هذا مع العوائق القائمة مع شيخوخته وإجداب امرأته ؟ وهو تساؤل المستشرف لإزاحة هذه العوائق لا اليائس منها ، وكان الجواب : ﴿ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣) .

ولا ندرى كيف تم الإنجاب ؟ إلا أن يحيى وُجِد ، وورث أباه فى النبوة .

---

(١) آل عمران : ٣٧ (٢) آل عمران : ٣٨ - ٣٩ (٣) آل عمران : ٤٠

وعندى أن هناك أسباباً كثيرة يجهل البَشر طريقة استخدامها ، كما أن القدرة العليا لا تحصرها الأسباب التى نعرفها ..

ونحن مكلّفون باحترام قوانين الأسباب والمسببات ، كما كُلّفنا باتباع المحكم من آيات القرآن .

أما ما نَدَّ عن هذه القوانين فلا نطيل السير وراءه ، فهو كالمتشابه الذى يجر تعمقه إلى الزيغ والانحراف ..

وقد اعترضت حياة الناس فى كل زمان ومكان خوارق شتّى لا نحب أن نحملها من المعانى ما لا تطيق .

* * *

obeikandl.com

من مزاعم الروحية الحديثة

عند بعض المتدينين طيبة تبلغ حد السذاجة ، وإيمانهم بالغيب - إذا تجاوز حدود الكتاب والسُنَّة - قد يكون ثغرة تنفذ منها الأساطير وتضار بها حقيقة الدين .

وقصة تحضير الأرواح التى شاعت فى عصرنا هذا قد اكتنفها أوهام شتّى ، وسرت فى ركابها أفكار ينكرها الإسلام ..

ولكن لما كان الموضوع نفسه مثيراً ، ولما كان مضاداً بطبيعته للمادية التى فرضت نفسها على العلم ، والسلوك .. فإن كثيراً من الناس هش له بدوافع حسنة ، وظن أنه يستطيع نصرة الإيمان عن طريقه .

ونحن نريد معالجة هذه النزعة من أساسها على ضوء ما نحفظ من كتاب ربنا وسُنَّة نبينا ..

ولعل إحقاق الحق فى هذه القضية يضع الحدود لجدل كثير ، ويغلق الأبواب أمام ترهات لا آخر لها .

ونتساءل أولاً : هل الأرواح فى العالَم الآخر - أعنى فترة البرزخ - تستأنف نشاطها العام على نحو ما كانت تسير فى الحياة الدنيا ، وأن وسائلها فى عالمها الجديد أوسع دائرة وأعظم اقتداراً ؟

إن بقاء الأرواح بعد الممات عقيدة لا ريب فيها ، وهى عقيدة جميلة مشرقة ، حبذا لو ذكّرنا الناس بها حيناً بعد حين ، فإن صورة الموت ترسمها الأذهان فى إطار قابض عفن !

وأكثر الناس - فى هذا العصر - يظن الموت مرادفاً للبلى والفناء ، ونهاية العهد بالإحساس والحياة والضياء !

وهذه الأفكار من نضح المادية التى تسود عالمنا الأرضى ، أو هى من بقايا الجاهلية الأولى فى فهم الوجود وقضية الخليقة .

والدين ضد هذه الأوهام ، ونصوصه جازمة بأن الآخرة حق ، وأن الموت نقلة من عالَم إلى عالَم ، ومن وجود مستيقن إلى وجود مستيقن !

لكن .. هل الأرواح بعد هذه النقلة تستأنف سلوكها الأول - كما يقول معتنقو الروحية الحديثة - وأن بعضها يشتغل بالوعظ والإرشاد ، وبعضها يشتغل بالطب وعلاج المرضى ، وبعضها يشتغل بالنصح الفردى وحل المشكلات العارضة ، وبعضها يتسكع دون عمل ، وبعضها يمد يده بالأذى للأحياء ، وبعضها يدور مذهولاً لا يدرى أنه مات !

هكذا يكتب الروحانيون فى رسائلهم ، بل إن بعض الأرواح عندما استُحْضِر طلب « سيجاراً » يدخنه !! .... إلخ ..

هل هذه سمات العالم الروحى ووظائفه ؟

وهل صحيح أن ضروب الخدمة الاجتماعية تتاح لكثير من الأرواح ، لعلها ترقى وتنال رضوان اللّه وغفرانه ، أو لعلها تكفِّر عما فاتها فى الماضى الأول أيام الحياة الدنيا ؟

هنا نختلف مع دعاة هذه النحلة أشد الاختلاف وتفترق بنا الطرق ، فيذهبون حيث شاءوا ونثبت نحن على ما بين الكتاب الكريم والسُّنَّة المطهرة ..

* * *

الإسلام قاطع فى أن ميدان العمل الإنسانى هو هذه الحياة الدنيا . وأن المرء - فى فترة الأجل الموقوت له - يُبتلى بفنون التكاليف ، ويتعرض لامتحانات شتَّى ، وأن نجاحه وسقوطه يتقرران جميعاً عند انتهاء عمره على هذه الأرض ! وهو بالموت مباشرة يبدأ مثوبته أو عقوبته !

قُضِى الأمر ، وطويت أوراق الامتحان ، ومن سجلاتها وحدها يُكتب من أهل اليمين أو من أهل الشمال . ليس هناك مجال آخر لتكليف ، ولا تعرض آخر لامتحان ، ولا استئناف لحكم أو طلب لفرصة جديدة ..

نعم .. فوق هذا الثرى وحده يُكلَّف الإنسان أن يؤمن بإلَه لا يراه ، ولكن يرى آثاره ، ويعرف أدلته .

ويُكلَّف بإيثار الخير وإن ضحى بشهوته العاجلة ، ونزل عن رغباته الحاضرة ، ويُكلَّف بالإعداد لليوم الآخر ، والبذر للحياة المستقبلة موقناً بعالَم الغيب ، وإن كان مغموراً بعالم الشهادة ..

فوق هذا الثرى وحده ، وخلال العمر المقدور له ، يصنع الإنسان مصيره المرتقب ، ويستحيل أن تتاح له فرصة أخرى لمتاب إن كان خاطئاً ، أو لارتقاء إن كان قاصراً ، فإن الموت فاصل قائم بين حياتى العمل والجزاء ، أو حياتى البذر والحصاد !

واسمع إلى إجابة الله للمجرمين وهم يلقون جزاءهم العدل :

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (١) .

وهذه الإجابة الإلهية تكرار لما قد يسأله المجرمون عند ساعة الاحتضار ، عندما تذهب السكرة وتجىء الفكرة ، عندما يتلهفون على ماضٍ ضاع سدىً ، فيقول أحدهم :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلاَّ ، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٢) .

نعم .. إلى يوم البعث لا مكان لعمل ، لا استئناف لنشاط ، لا فرصة لتوبة ، لا مجال لترقيع ما فسد !

إن مجال العمل المطلوب والتوبة المنشودة فى هذه الدنيا وحدها ، والمرء فى عافية من دينه ، وفسحة من أجله ، وإقبال من أمله .

فإذا دقت ساعة الرحيل عن هذه الدنيا أخذ الكرام الكاتبون يطوون دفاترهم ، دون اكتراث لتوبة الغرغرة أو يقظة الضمير الصاحى بعد فوات الأوان .

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ (٣) .

---

(١) فاطر : ٣٧ (٢) المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ (٣) النساء : ١٧

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ (١) .

والواقع أن قبول الإيمان من كافر فى هذه اللحظات أو قبول التوبة من مفرط ، أشبه ما يكون بقبول الغش فى الامتحان ، وحسبان الطالب الذى يتلقف عوناً من هنا وهنا - ليستطيع كتابة شىء فى ورقته - مساوياً للطالب الذى عكف على الدراسة ، وسهر الليالى فى انتظار هذه الساعة ..

وشتّان بين الرجلين . ومن ثَمَّ كان الجواب الأعلى لما قال فرعون : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ! (٢) .

وهذا المعنى السارى فى آيات القرآن طولاً وعرضاً ترى مثله فى أحاديث النبى ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم نافع ، أو ولد صالح يدعو له » (٣) .

وتلك بداهة آثاره فى الدنيا تخلفه بعد حياته ويجرى عليه أجرها ما شاء الله .

ومن فضل الله على كثير من خلقه أن جعل لهم « رصيداً » مفتوحاً من المثوبة النامية الباقية ما بقى عملهم متجدد النفع مطرد الفائدة ..

فإن العمل قد يكون محدود الدائرة لا يتجاوز خيره خطاً معيناً .

على حين يؤلف البعض كتاباً يسير هداه مع الأجيال ، أو يصنع دواء يستشفى به المرضى فى القارات كلها ..

لكن بدء هذا العمل النافع الواسع كان فى حياة صاحبه ، وأثناء الاختبار المقرر على ظهر هذه الأرض .

---

(١) النساء : ١٨ (٢) يونس : ٩٠ - ٩١

(٣) مسلم ، وأبو داود ، والنسائى كلهم فى : الوصايا ، والترمذى فى الأحكام ، وابن ماجه فى المقدمة .

أما بعد الممات فلا تكليف بعمل ، ولا مجال لابتلاء ولا « ملحق » لنجاح أو رسوب . قال علىّ بن أبى طالب : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الدار المقبلة ولا تكونوا من أبناء الدار المدبرة ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » ..

وخطب النبى ﷺ ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فقفوا عند نهايتكم .

« إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى ما اللّه صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما اللّه قاض فيه ..

« فليأخذ امرؤ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت .

« والذى نفس محمد بيده : ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

* * *

وتوكيداً لهذا المعنى ، وانتهازاً لفرصة العمل فى الدنيا قبل مغادرة الدنيا ، وفى أثناء العمر المتاح قبل انقضاء العمر ومفارقة الحياة ، يقول هذا الرسول الكريم : « أيها الناس ، كأن الموت فى الدنيا على غيرنا قد كتب ! وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذين نشيِّع من الأموات سَفر عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم ، كأنّا مخلدون بعدهم ، قد نسينا كل واعظة وأمنّا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية ، ورحم أهل الذل وخالط أهل الفقه والحكمة . طوبى لمن زكت نفسه وحسنت خليقته ، وطابت سريرته وعزل عن الناس شره ، وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السُنّة ولم يعدها إلى البدعة » [1] .

* * *

(١) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٢٢٩) : رواه البزار وفيه ضعف .

ولا تخالط مسلماً ذَرَّة من الشك فى صدق الجزاء المكتوب للصالحين والطالحين ، وأن مطالعة هذا الجزء تبدأ مع مفارقة الروح الجسد ، ورحيل الإنسان عن هذه الدار ..

فإما هبَّت نسائم النعيم على أهل التقوي ، واستقبلتهم بشريات الفوز والنصر ..

وإما تطاير شرر الغضب على أهل الإلحاد والعصيان ، ورأوا عواقب زيفهم عاراً وناراً ..

وذاك معنى الحديث : « القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » [1] .

الأرواح بعد الموت يستغرقها الجزاء المقدّر لها على ما قدّمت فى حياتها الأولى !

وتصور أنها تستأنف العمل بعد الموت فى ميدان ما بيننا نحن الأحياء تصور معتل منكور ، لا صلة له بالدين ولا يعتمد على أثارة منه .

فكيف ، بعد تعاليم الإسلام الواضحة - على ما أسلفنا - يجىء قوم فيزعمون أن الأرواح تعمل بعد الموت ، وأنها تشتغل بالطب والتعليم حيناً ، والتسول والاعتداء حيناً .

وأنها تشارك الناس أحوالهم ، وتقف حيث هى فى انتظار مَن يشير إليها لتحضر فى قفة أو دلو ، أو ما شاكل ذلك !

ثم إن الجزاء الذى صوّره القرآن فى عشرات السور لا تلمح له أثراً ، بل تكاد تظنه صفراً ، فيما يصوِّر به الروحيون مذهبهم العجيب ، فلا جَرَم أن نرى الذهاب إليه انصرافاً عن الإسلام نفسه ، وريبة فى كتابه وسُنَّته .

إننى أعلم - كغيرى من المسلمين - أن الأرواح المجرمة تُحبَس فى سجنها

---

(١) رواه الترمذى فى « القيامة » .

الموحش القاسى ، وتلقى من العنت ما يشغلها عن السياحة والتسكع فى شتّى القارات ، تنتظر مَن يحضرها لتسأل فتجيب .

وأعلم أن الأرواح الطيبة مرحة فى بحبوحة النعيم الإلهى ، وأنها قد تعرف ما يلقى الأهل والأقربون ، وأنها ترقب مجيئهم من دار الغرور إلى دار الحبور ، وأنها لا تتكلف تسبيحاً وتحميداً ، فقد أصبح ذلك طبيعة لها كالتنفس لأهل الأرض .

نعم .. نحن نعرف من كتاب ربنا وسُنّة نبينا أطرافاً من ذلك الأمر المغيب ، وليس وراء ذلك العرفان إلا الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً ..

ومع هذه المعرفة المستيقنة ، فإن المشتغلين بتحضير الأرواح لا بأس عليهم أن يستحضروا روح « كارل ماركس » ليقول لهم : إنه فى نعيم مقيم ! وكم من كافر حضّروا روحه لتعلن سرورها بعالَمها الجديد !

ولقد رأيتُ أن أسترسل وراء هذه الكائنات التى زعموا أنها أرواح تشتغل بهداية البَشر !

فتتبعت مواعظها ، وقرأت ما أملت من كتب ، وألفت من خطب ، فماذا وجدت ؟

وجدتُ من خلال العبارات المحمومة المتلقاة عن طريق الوسطاء أن الروحية دين جديد ! له تعاليم جديدة ! وسرعان ما وازنت بين هذا الدين وتعاليمه والإسلام الحنيف وما جاء به ، فأدركتُ أن التعاليم الجديدة مجموعة خرافات نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء ، وأن مَن أوحى بها ليسوا أرواحاً هادية ، وإنما هم مردة الجن ..

* * *

تتضافر الجماعات المشتغلة بتحضير الأرواح على الترويج لديانة جديدة تحل محل الديانات القديمة وتنمسخ تعاليم الأنبياء الأوّلين ، وترسم للعالَم طريقاً أخرى تصلح لطوره المعاصر ، وتلتقى فيها شتّى الأجناس والنِحَل ..

ولا يحتاج المرء إلى عميق ذكاء ليرى أن الروحية الحديثة ، بما وفدت به من تعاليم تقوم على وحدة الوجود ، فالله والعالَم شيء واحد !

وعلى تناسخ الأرواح وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن ، فلا فناء للدنيا ، وليس هناك يوم للبعث والحساب العام !

وعلى أن الشرائع القديمة قد استنفدت أغراضها ، والروحية الحديثة هى التى ستهدى العالمين بوحيها العصرى المتقدم !!

ويبلغ هذا الخبل الروحي مداه عندما يكذّب رسالة محمد ﷺ ، ويؤكد الأخبار التى راجت عن النبيين والمرسلين مصادمة تصوير القرآن الكريم لمحياهم ومماتهم .

بل هنا ينكشف القناع عن الأهداف التى تعمل لها الروحية الحديثة ، والنيّات الاستعمارية التى تختبىء خلفها !

ومَن الذى يختلق هذه الترهات ويروّج لها ؟ عالَم الأرواح الذى اتصل بالبَشر فجأة لينير لهم الطريق !؟

ونريد أن نقف القراء وجهاً لوجه أمام النصوص التى تشرح هذه الروحية الحديثة منقولة عن الصحائف التى ينشرها أتباعها ويتحمسون لها أشد الحماسة ..

فى كتاب للجمعية الإسلامية الروحية اسمه « التوحيد والتعديد » ، يقول الروح الرائد لهذه الجمعية : « إنى صوت منبعث من السماء ينادى أهل الأرض أن آمنوا بالله ... إنى أحمل رسالة هداية من السماء أعد خطواتها بدقة عباد مخلصين لله تجمعوا فى ملكوته الأعلى ... إن دورى هو دور رسول يبلغ الرسالة ، ولقد جاهدت لأكون أميناً فى إيصال ما حملته » [1] .

ثم يقول مسيلمة الجديد ، نبى الروحية الحديثة : « تذكروا دائماً أنكم فى الله وأن الله فيكم » !

واسم هذا الروح الرائد للجمعية الإسلامية الروحية « سلفر برش » .

---

(١) التوحيد والتعديد ص ٤٥ - ٤٨

ويقول « سلفر برش » هذا فى كتابه « الحكمة العالية » الذى تلقاه عنه أتباعه : « نحن جميعاً جزء من الروح الأعظم ، وأنتم فى مجموعكم مع بقايا الحياة الأخرى تكوِّنون الروح الأعظم ، ولا وجود للّه خارج هذه المجموعة ، ولو أن هذا القول لا يمكننى البرهنة عليه ، إلا أنه يحسن قبول كلمتى فى هذا الصدد » (١) .

وهناك روح آخر اسمه « هوايت هوك » ، يهيب بالناس قائلاً : « يجب أن نتحد فى هذه الحركة ، فى هذا الدين الجديد (!) وأن تسودنا المحبة وأن تكون لنا القدرة على الاحتمال والتفاهم .. رسالتى - أى دعوة « هوايت هوك » زميل « سلفر برش » - أن أواسى المحروم وأساعد الإنسان على تحققه فى نفسه مع اللّه سبحانه . الإنسان إلَه مكسو بعناصر الأرض (!) وهو لن يدرك ما فى مقدوره حتى يحس بجزئه الملائكى الإلَهى .. » (٢) .

وفى كتاب « التوحيد والتعديد » الذى أوحى به « سلفر برش » يقول : « إن اليوم الذى تنتشر فيه تعاليم الروحية فى عالمكم سيكون فجراً ليوم سعيد .. إذ ستزول الفوارق بين الشعوب وتُهدم الحواجز بين الأجناس ، وتذوب الفوارق بين الطبقات ، وتتلاقى الأديان حول حقيقة واحدة كما تبعث من حقيقة واحدة » (٣) .

وهذا المعنى تؤكده مجلة « عالَم الروح » فى العدد ١٢٦ ، إذ تقول : « إن هذه المنظمة ستكون لكل البَشرية ، وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالَم الروحى طريقة جديدة للحياة ، ويعطوننا فكرة جديدة عن اللّه ومشيئته ، وسوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد ، وبين العقائد والأديان » .

وفى كتاب « التوحيد والتعديد » - تعاليم « سلفر برش » - يقول : « إذا كان التعصب للأديان فى وهم إقامة المناسك معطلاً عن التلاقى فى صعيد واحد ، وهو معطل فعلاً (!) فإن الأديان ليست فى المناسك ، فلتترك البشرية هذا جانباً ، ولنتلاق فى مقابلة هذا الأمر الجديد من الاتصال الروحى » (٤) .

---

(١) الحكمة العالية ص ٥٢
(٢) العدد ١٢٧ من مجلة « عالَم الروح » .
(٣) التوحيد والتعديد ص ٥٧
(٤) المرجع السابق ص ١٨٣

وهذا الكلام المنطوى على استهجان المناسك الدينية واعتبارها مثار اختلاف البَشر هو هو ما يقول الروح الآخر « هوايت هوك » ، إذ يصرح بأن : « الروحية تحتضن الجميع ولا تستثنى أحداً ، يقول الناس فى زمانكم : إن الطقوس والفرائض عديمة النفع ، ولكن طقوسي وفرائضى تنحصر فى تدريب الناس على تركيز القوة الروحية » .

وظاهر من هذا التوافق أن مروجى الروحية يعملون لغاية مشتركة ، وأن العبادات المقررة لا وزن لها عندهم !!

وتبدو قيمة النصوص الدينية فيما جاء بكتاب « التوحيد والتعديد » ، إذ يقول الكاتب دون حياء : « إن القصص الدينى عن آدم ونشأته وزوجه وولده ليس تاريخاً من وجهة النظر العلمية كما يتوهم بعض المتعصبين للأديان » !!

إذن ما هو يا مسيلمة الجديد ؟

يقول : « إنه تكييف تقريبى للعقل البَشرى عن النشأة ، بدءاً من الفرد ذكراً كان أم أنثى ، وعن تكرار هذه النشأة فى عوالمها ، سواء على هذه الأرض ، ومنها كانت النشأة ابتداءً ، ومظهراً ، أو بالارتداد من عالم الروح بعثاً .. فآدم الحقيقة عليها ، وآدم الخليقة منها ، أمران تصويريان للعقول لا يُدرك لهما أول ، ولا يُعلم لهما كنه ، ولا ينقطع لهما فعل أو وجود » [1] .

وهذا كلام ساقط مفترى من أوله إلى آخره وهو ترديد لفكرة تناسخ الأرواح ، وخلود الدنيا وإنكار الجزاء ، وهو إلغاء لرسالات السماء كلها ، وطعن خبيث فى قواعدها ومناهجها وأخبارها ووصاياها ..

والغريب أن هذا الهدم الدينى العام الوافد من أوروبا يتلقاه الناس منا على أنه فجر روحى جديد ، ويقول عنه مستشار قانونى يرأس جمعية إسلامية روحية : « إذا كان الاتصال الروحى فى هذا العصر يأتينا ممن أسميناه الغرب ، فإن اللّه اليوم يأتى بالشمس من المغرب كما جاء بها قديماً من المشرق » ..

---

(١) التوحيد والتعديد ص ١٠١

وهذا كلام هزل ، فإنّ هذه الروحية المزعومة حرب على اللّه والمرسلين ، ولا نشك فى أن الحاقدين على الإسلام ، الكارهين لأمته ، المعوّقين ليقظته ، هم الذين يدبرون مؤامرتها وينسجون حبالتها .

وللاستعمار الثقافى أساليب ماكرة خفية لتدويخ الفكر الإسلامى ، وبث الفوضى فى جنباته والدعوة إلى الروحية الحديثة ، بعض هذا الهجوم على حقائق الإسلام وتعاليم نبيه .

واسمع ما يقول الدجال « سلفر برش » - وهو الروح المرشد لبعض الجمعيات عندنا - فى كتابه « الحكمة العالية » : « لا زال المسيح فى عالمنا هو أعظم مَن نعرف ، ولم يحدث قبل يومه أو بعده أن تنزّل الإلهام الإلهى إلى الأرض بالقدر الذى نزل عليه » ..

ثم يستتبع هذا الدجال تكذيبه لنبوة محمد ﷺ ، فيقول : « كان عيسى آخر الأنبياء والمعلّمين ، ذاك الذى وُلِد من أبوين يهوديين » (!) [1] .

ثم يزعم أنه صُلِب ، لأنه بشّر بتعاليم تخالف كنيسة عهده [2] .

ومن غرائب الروحية الحديثة أنها توافق أخس المذاهب المادية فى مهاجمة الأديان السماوية والطعن عليها ، خصوصاً الإسلام ، فيقول « سلفر برش » :

« لا توجد جنة ذهبية ولا جهنم نارية ، إنما هذا هو تصور هؤلاء المحدودى النظر ! لا تقيدوا أنفسكم بكتاب واحد ولا معلم واحد ولا مرشد واحد .

فولاؤنا لا لكتاب ولا لدين ولا لعقيدة ، ولكن للروح الأعظم وحده » .

ولكى يزين للناس التحلل من عقيدة الإيمان باللّه ، يقول : « حينما ينتقل الإنسان إلى العالَم الآخر فلا عبرة بما كان يظنه أو يعتقده . وإنما العبرة بما أداه من خدمات للعالَم .

---

(١) الحكمة العالية ص ٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٥٦

فحينما يهوى الجسم المادى إلى الأرض ، فكل عقائد الجنس البَشرى التى قاتل وجاهد من أجلها طويلاً وتفرق شيعاً وأحزاباً تبدو جوفاء ، وعبثاً لا معنى له ولا هدف .

لأن هذه العقائد لم تساعد على تزكية الروح ذَرَّة واحدة » [١] .

وينكر « سلفر برش » فكرة بدء الخليقة ، كما ينكر أيضاً فكرة نهاية الخليقة ، فيقول : « لا أستطيع القول أنه يوماً ما لم يكن هناك ضوء ثم وجد فى اليوم التالى ، إن عالمكم لا زال يحتفظ بفكرة أن الخليقة بدأت على مثال ما ورد فى قصة جنة عدن ، هذا ليس صحيحاً .

لقد كان هناك تطور فى عمل مستمر .

ليس حقاً أن الكون كان معدوماً ثم بدأ فجأة ، الكون كان دائماً موجوداً ، نحن نعرف أن الكون لا بداية له ولا نهاية » [٢] .

وهكذا يتضح لنا أن كل ما يقوله دعاة هذه النحلة الخبيثة من أن دعوتهم تؤيد العقيدة الدينية وتدعمها ، إنما هو ضرب من الخداع والدجل .

ويعلنها « سلفر برش » هكذا بصراحة وجلاء فيقول : « لا يهم إذا كان الرجل مسيحياً أو كافراً ، المهم هو ما يفعله فى حياته .

« أعطنى الرجل الذى لا يعتنق أى دين ، الذى لا يركع لذكر اسم اللّه ، ولكنه أمين ويحاول أن يخدم ويمد يده للضعيف ، ويساعد الكلب الأعرج الرجل المملوء شفقة للمنكوبين ، والذى يعاون مَن هم فى ضائقة بحرارة .

« ذلكم أكثر تديناً ممن يُنتسب إلى أى دين » [٣] .

وهكذا يروج الإلحاد تحت ستار التنويه بمكارم الأخلاق !

---

(١) كتاب « الحكمة العالية » ص ٢٨ ، ١٢٤ ، ١٤٩

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠١

كأن الدين عدّ الفضائل نافلة ، أو كأنه لم يتوعد بأشد النكال طوائف الكذبة والخونة ، ومانعى الخير ، وكارهى الناس !

ولكن الروحية الحديثة تحتال للقضاء على الدين كله ، وخصوصاً الإسلام ، بوضع مبادئها فى إطار براق من حب الإنسانية والعطف عليها ، ومن المتاجرة ببعض الكلمات المطاطة فى هذا المجال المفتعل .

مع أن الإنسانية حين تكذّب الوحى ، وتنكر المرسلين ، وتهمل أوامر الله ونواهيه ، تنسلخ من فطرتها وتهوى إلى أسفل سافلين .

وما قيمة العالَم كله يوم يجهل ربه ، ويهمل هداه !

ونتساءل : أرواح مَنْ مِنَ الموتى هى التى تبنت إبلاغ هذه الرسالة الخسيسة لأهل الأرض ؟

أرواح الصالحين من المؤمنين ؟ كلا ، فهؤلاء عرفوا الله عن طريق موسى وعيسى ومحمد - عليهم السلام ، فيستحيل أن يخرجوا على كتبهم ، ويتنكبوا طريقهم .

ولو أتيحت لهم - جدلاً - فرصة العودة إلى الأرض - والعودة إليها بعد الموت مستحيلة - لما دعوا الناس فى هذا الزمان إلا إلى إتباع محمد ﷺ ، والأخذ من قرآنه وحسب !

أهى أرواح الفجرة من العصاة ؟ كلا ، فهؤلاء بعدما غادروا الحياة ملكتهم حسرة قاتلة على زيغهم أيام الدنيا ، ثم هم فى أيدى حراس غلاظ شداد ، قد أمسكوا بخناقهم توطئة لحساب شاق !

فكيف يُتصور أنهم عادوا إلى الحياة الدنيا عن طريق الاتصال الروحى يستأنفون التزوير والتضليل ؟

إننا لا نشك فى أن مبادىء هذه الروحية الحديثة هى من عبث مردة الجن ، الذين استغفلوا نفراً من أبناء آدم ، واصطادوهم إلى هذه المجالس ، مجالس

الأشباح والأوهام ، مجالس تحضير الأرواح - كما يقال - ليملوا عليهم هذا المنكر من القول .

وما أكثر عبث الجن بالإنس ، وأوسع طرقه ، ولذلك يندد القرآن الكريم بأطراف هذه الفتنة فيقول : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ولا غرو ، فإن الشيطان يستحلى إغواء أبناء آدم ، كما يستحلى أبناء آدم أكل السحت وارتكاب الزنا !

وعقبى هذه المتع كلها جهنم ..

وفى عصرنا هذا أخذت سخرية الشياطين من البَشر هذه الطريقة التى لم تؤلف من بدء الخليقة .

فطلع علينا مَن يزعم أن أرواح الموتى اتصلت به لكتابة ونشر دين جديد للناس . واستمعنا إلى أبواق الظلام ، فإذا هى تجدد الوثنيات القديمة ، وتحارب هدايات اللّه ، وتصد عن قرآنه العظيم ، الكتاب الذى استوعب الوحى كله ، والأثر الفريد الباقى فى القارات الخمس ، يقود إلى اللّه ، ويقدم لعباده الحق الخالص النقى .

* * *

ولئن كنا نستنكر التعلق بما يسمى مجالس تحضير الأرواح على الأجانب الجهلة بالإسلام ، إننا لنستغرب من بعض المسلمين عدم مبالاتهم بالموضوع ونتائجه ، فربما سمح أحدهم لنفسه - طمعاً فى استكشاف غيب أو إبراء مريض - أن يحضر هذه المجالس ، وربما وضع الجن له « طُعْماً » فى كلمة تصدق أو حاجة تُقضى فيلقى لها زمامه كله ، فإذا هو بعد حين ناكب عن الصراط المستقيم .

---

(١) الأنعام : ١٢٨

وللجن قدرة أبعد مدى من قدرة البَشر ، إنهم يغزون الفضاء بطاقاتهم العادية من زمان قديم ، ولكنهم لا يعلمون الغيب .

وما يكون غيباً أحياناً بالنسبة لنا قد يكون عياناً بالنسبة لهم ، والحدأة لا تعلم الغيب إذا كانت ترى من الجو ما لا نراه نحن تحت أقدامنا ..

فإذا استطاع شيطان أن يعرف بعض ما نجهل ، عن الأشخاص أو الأشياء - وهى معرفة محدودة ، وقد تكون مغلوطة - فليس هذا علماً بالغيب ... وبالتالى ، فإن ما يُثرثَر به فى مجالس التحضير لا يدل على شىء ذى بال ، ولا يسوغ أبداً أن يكون ذريعة لترك ما نعلم من شرائع الإسلام ..

لكن هذه المجالس ، للأسف ، ولدت لنا فى هذا العصر مسيلمة آخر ، وسجاحاً أخرى ، والجنون فنون !!

إننا نحن المسلمين نؤمن بالمادة وبما وراء المادة ، نؤمن بالحياة الحاضرة وبالحياة المقبلة ، ولإيماننا مصادر وثيقة من كتاب معصوم وسُنَّة مضبوطة ، ولا يليق بنا أن نأذن للأوهام بأن تتسرب إلى هذا الإيمان ..

ثم إن الأحكام الشرعية عندنا تفرق تفريقاً حاسماً بين اليقين العلمى ، والظن العلمى ، والرأى العلمى ...

وهى تستبعد ابتداء الرؤى ، والإلهامات ، من مصادر المعرفة الشرعية العامة ...

والعيب المأخوذ على بعض المتدينين ، والذى قد يصيب الدين نفسه إصابة جسيمة . إنهم يخلطون فى سلوكهم وفهمهم بين الرأى واليقين ، أو بين الأحلام والحقائق ..

ونحن ننصح المسلمين أن يحذروا على أنفسهم من هذا الخلط ، والله ولى التوفيق .

محمد الغزالى

* * *